الشُّعَرَاءُ الصَّعَالِيكُ
الذَّاتِيَّةُ والخُصُوصِيَّةُ

الأستاذ: فهد بن إبراهيم بن سعد البكر
قسم اللغة العربية
كلية الآداب والفنون - جامعة حائل
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض
المملكة العربية السعودية

مقدمة:

الحمد لله الذي له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير، وأشهد ألا إله إلا هو الحكيم الخبير، الذي علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، وأصلي وأسلم على النبي النذير، والسراج المنير، والهادي البشير، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين. وبعد:

يستهويني النظر كثيراً في كل موضوع له صلة بالشعراء الصعاليك منذ أن كنت طالباً في المراحل الجامعية الأولى، وقد دفعتني دراسة "لامية العرب" للشنفرى- موضوع بحثي حينها- إلى أن أكتب أوراق عمل عن ذلك، إلا أن قصور الإنسان الفطري عن إدراك الحقائق ومعرفة كنهها، وسبر أغوارها، قد وقف حائلاً دون تقديم صورة مرضية في هذا الشأن، الأمر الذي جعلني بعد ذلك أفكر كثيراً أن أتعمق في كل ما يتصل بموضوع الصعاليك.

من هنا جاءت محاولتي هذه- بفضل الله وإعانته- لتقديم صورة ولو عابرة لأستقصي من خلالها الأمور ذات الحساسية فيما يتعلق بشأن الصعاليك.

وسأقوم في هذا العمل بتسليط الضوء على مفهوم الصعلكة اللغوي، والأدبي، وما يتصل بحياة الصعاليك الاجتماعية والاقتصادية، وتطور هذه الظاهرة عبر العصور، وما تتسم به تلك الطائفة الصعلوكية من قيم إنسانية، أو نزعات عدوانية، كما سأتطرق إلى الذاتية باعتبارها طابعا خاصا، يعدّ الوقود الجزل لشعر تلك الطائفة.

وبعد ذلك سوف أعرّج على امتداد ذلك الطابع مع شعراء تلك الطائفة في كثير من العصور، لكي أعطي تصورا واضحاً على اتفاقهم في هذا الجانب، فالذاتية هي معين لا

ينضب ظلّ ينهل منه الصعاليك ويصدرون، وهذا ما يجعل دراسة الذاتية أمرا جديراً بالاطلاع، وخليقاً بالدراسة والمتابعة.

على أن موضوعاً مثل هذا قد يحتاج إلى جهد جبار، وعملٍ مضن، للوصول إلى النتائج والأحكام، إذا ما أدركنا أن المادة العلمية التراثية التي تتناول هذا الجانب تحتاج هي الأخرى إلى وقت طويل حتى يمكن الإلمام بالموضوع، وتقصي أطرافه؛ ذلك أنه لا بد من جمع الأشتات المتفرقة في ثنايا الكتب القديمة، وأعني بذلك أن الكتب القديمة كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والأمالي لأبي علي القالي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ونحوها كثير، كل هذه المصادر إنما هي مقلة في الحديث عن الصعاليك، مقارنة بقضايا الشعر العربي الأخرى، فكل ما نجده هو جمع لبعض القصائد التي سرقت الأضواء، وأبهرت النقاد والأدباء، أو تراجم وسير يسيرة، أو لمحات موجزة عن بعض الظروف الاجتماعية مثلاً، أو الاقتصادية ونحو ذلك.

ومن هنا يمكننا القول بأن الفضل يعود لله ثم للدارسين المحدثين الذين لم يفتأوا يجمعون تلك الموضوعات والمصادر من هذه الأصول، فجمعوا من كل البساتين أشكالاً عدة من الورود والأزاهير، فعكفوا على دراسة النصوص والظواهر والشخصيات، ووقفوا عندها مستنتجين ومستنبطين.

على أن المحدثين لم يراوحوا مكان البحث إلى اكتشاف أوجه جديدة حول الظاهرة أو الشخصية أو النص، فكل ما نراه هو إضاءات تاريخية، أو فنية، أو أدبية دون الكشف عن الملامح الإنسانية، أو تجلية الغامض كإبراز الجانب المشرق والمضيء لشعراء الصعاليك.

الصعلكة مفهوم وظاهرة:

المفهوم اللغوي والمفهوم الأدبي: لعل المتتبع للفظة الصعلوك عبر معاجم اللغة يتجه فكره إلى الفقير الذي لا مال عنده ولا جاه، ولعل هذا المعنى هو ما يتردد كثيراً في أذهان العامة، بيد أن هناك معاجم لغوية اختلفت كثيراً في اللفظة واتفقت في المعنى المراد، ونحن بدورنا لا نريد الغوص في متاهات المعاجم، فحسبنا أن نشير إلى بعضها حتى نجلو الصورة ونعطيها وضوحاً أكثر.

في اللسان الصعلوك: الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك[1]. وفي القاموس المحيط: صعلكه: أفقره، والصعلوك الفقير، وعروة الصعاليك هو ابن الورد[2]، وفي أساس البلاغة: صعلك، هو صعلوك من الصعاليك وتصعلك، وصعلكه: أضمره وأدقه[3]، وفي المنجد: صعلكه صعلكةً: أفقره، والصعلوك: الفقير، والصعلوك الضعيف[4].

إذن نلحظ من خلال هذا الرصد المعجمي السريع أن لفظة الصعلكة تدور في إطار الفقر والضعف وعدم القدرة على أمور النفقة والمعيشة، وهذا غالباً هو ما اتفقت عليه أكثر معاجم اللغة العربية.

غير أننا نلحظ مساراً آخر تسير فيه هذه الكلمة كلما حاولنا التعمق فيها ، وخصوصاً إذا تناولناها من إطارها الأدبي. فالصعلكة تطلق على: فئة حائدة عن مسار القبيلة وأعرافها ، ومتمردة على قوانينها التي شرعتها لأفرادها ، وهي مجموعة تعتمد على الغزو المتواصل والنهب والسلب من الآخرين لأهداف متباينة وقد تكون متباعدة.

وقد برع من تلك الطائفة شعراء خلع عليهم لقب الشعراء الصعاليك الذين يغيرون ويسلبون لمآرب معينة ، ويصورون ذلك في أشعارهم متباهين ومفتخرين على قبائلهم التي طردتهم ونفتهم، فيكون شعرهم نابعا من ضمير متوهج بالأحقاد ، ليكون رد فعل منهم على ما يجدون.

لكن حقيقة هذا اللقب "الصعاليك" قد أساء بعض الباحثين استخدامه ، فجعل يخلط ألقاباً وأوصافاً لم تكن من سلوكيات وشخصيات أكثرهم. فبعضهم يطلق هذا اللقب على الفقراء عامة ، وآخرون يخلعونه على كل من كان أسود (أغربة العرب أو غربائها) ، وبعضهم يطلقه على الخلعاء أو الفتاك أو الشطار أو نحو ذلك، مما قد يكون من صفاتهم، أو أنماط عيشهم، ولكن ليس بشكل عام.

فمثل هذه الصفات قد تكون موجودة ومتمثلة لدى بعضهم إلا أنها ليست مقصورة عليهم، فقد وصف بها أشخاص من المؤكد أنهم لم يحترفوا الصعلكة ، وإن زاولوا بعض أساليبها في بعض الأحيان و بعض الظروف[5].

على أن اختلاف الأساليب التي تزاولها تلك الطبقة أو الطائفة ، جعلت الكثير من معاصريهم - ومن الأدباء والنقاد أيضا - يطلقون عليهم أسماء مثل: اللصوصيين، أو ذؤبان العرب أو ذئابها ، أو نحو ذلك من الأساليب التي كانوا يمتهنونها غالباً ، أو الصفات التي كانت سمة بارزة في سلوكياتهم.

وهنا يجدر بنا القول إنه ليس كل الأغربة أو الخلعاء أو الفتاك أو اللصوصيين أو نحو ذلك كلهم من الصعاليك، فبينهم عموم وخصوص، فكل من زاول أساليب الصعلكة من سلب ونهب وغزو وإغارة ونحو ذلك هو صعلوك وليس العكس، فليس كل من كانت أمه حبشية سوداء ، أو كان منبوذاً من قبيلته ، أو من الفتاك اللصوصيين هو من الصعاليك.

فالصعاليك "إنما هم المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة ، بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء ، وهنا تخرج الكلمة عن الفقر إلى دائرة رحبة وأوسع هي دائرة الإغارة والنهب والسلب. والمتتبع لهذه الظاهرة يرى أن الصعاليك هم طائفة أو طوائف من قطاع الطرق ، كانوا منتشرين في أرجاء الجزيرة العربية ينهبون القوافل ويغيرون ويخطفون ويسرقون المال"[6].

وتباين أهداف الصعاليك واختلاف أساليبهم، وكثرة مآربهم إنما تعطينا تصورا واضحا أنهم لم يكونوا جميعاً فقراء، وإن كانت الكثرة الغالبة منهم دافعها وحافزها إنما هو العوز والحاجة وقلة ذات اليد.

ولذلك يبدو أن هناك ثمة تناقضا بين ما ذكره د. محمد رضا مروة آنفاً، وبين ما ذهب إليه بعد ذلك من أن جميع الصعاليك فقراء، وعلى رأسهم سيد الصعاليك عروة بن الورد كان صعلوكاً فقيراً مثلهم[7].

فالذي يبدو لي- والله أعلم- أن ما ذكره هذا قد لا يصدق عليهم جميعاً، وخصوصاً عروة بن الورد الذي لو عدنا إلى ديوانه لوجدنا صورة لا تؤيد مذهب الأخ محمد رضا مروة.

ففي الديوان أن عروة بن الورد كان فارساً جواداً يبذل الأموال الكثيرة على الفقراء ولا يبالي حتى عابه أهله على ذلك، بل إن فاعليته بالكرم والجود لم تقتصر على الصعاليك الفقراء وحسب، بل شملت كل محتاج فقير مسكين، ويدل على ذلك قوله:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته   لم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى   وتعلم نفسي أنه سوف يهجع[8]

وقوله ـ وقد استشهد بذلك محمد رضا مروة في كتابه:

ذريني للغنى أسعى فإني   رأيت الناس شرهم الفقير[9]

وهذا يعطينا دليلاً بل اعترافا من الأخ محمد رضا مروة بوجود الكرم والجود لدى عروة بن الورد، وهذا الكرم الذي اتسم به، والجود الذي ميز طباعه، إنما يدل على الإنفاق والبذل والذي بدوره يدلنا على الكرم، فكيف يكون فقر وكرم؟

إن ما يمكن قوله هو إن الكرم والبذل إذا كانا نابعين من الظروف القاسية والإمكانيات الصعبة فهذا ما يجعله أكثر قدراً وشرفاً، وينتقل من الكرم المعقول إلى اللامعقول وهو الكرم الأسمى المنشود، وهذا ما رأيناه في عروة بن الورد، "والذي قال عنه عبد الملك بن مروان: من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد"[10].

إذن نخلص إلى أن المفهومين اللغوي والأدبي بينهما خصوص وعموم، وبينهما كذلك تشابه وتباعد، فإذا كانت الصعلكة هي الفقر في أكثر تعريفاتها اللغوية، فإن ذلك يعتبر سمة من سمات الإطار الأدبي لتلك الكلمة، إلا أنه لا يصح تطبيق ذلك المفهوم على كل من هو صعلوك، وإن اجتمعوا في بوتقة الإغارة والسلب والنهب.

فالصعاليك هم طبقة امتهنت أساليب الصعلكة من نهب وغزو وسلب ونحو ذلك، كرد فعل إما لجوع أو فقر، وإما لنبذ القبيلة لهم وطردها وتشريدها إياهم، فيحاولون بذلك تعويض ما خسروه وإظهار أنفسهم بالقوة والشجاعة وغيرها من صفات العرب المعروفة بالنبل والمتسمة بالقيم.

ولذلك فالبعض قد يقع بهذا الخطإ عندما يصف جميع من كانوا فقراء أو خلعاء أو فتاكا أو غربانا أو ذؤبانا أو نحوهم بالصعاليك، فالصعلكة يجب أن تكون رد فعل، وأن تمارس من خلالها الأساليب التي اعتاد الصعاليك مزاولتها.

وكذلك الشعراء السود مثلاً أو ما يعرفون بالأغربة أو الغربان كذلك لا يكون الواحد منهم صعلوكاً حتى تنطبق عليه شروط الصعلكة التي ألمحنا إليها.

ولذلك نجد في المزهر للسيوطي: الأغربة في الجاهلية يعني السودان، عنترة وخفاف بن ندبة وأبا عمير بن الحباب، والسليك بن السلكة، وهشام بن عقبة بن معيط، وتأبط شراً والشنفرى.[11]

فليس كل أولاء من الصعاليك سوى السليك وتأبط شراً والشنفرى، إذ هم الذين ساروا على نهج الصعاليك.

خصوصية الحياة:

الحياة الاجتماعية: لم تكن طبقة الصعاليك بمنأى عن المجتمعات المحيطة بها سواء أكان ذلك في العصر الجاهلي أم ما بعده، لكن ظروف عيشها وأساليب حياتها تختلف اختلافاً يسيراً عن المجتمع المحيط بها، ذلك لأنهم يسعون إلى إبراز الكيان، وإثبات الذات التي شعروا بتقلصها عنهم بمجرد الإحساس بالجوع أو الفقر، أو النبذ والطرد، وقد كان ذلك هو المنبع الحقيقي والدافع الأكبر لنشوء تلك الظاهرة، فقد كان همهم السعي وراء الرزق وطلب المعيشة التي افتقدوها وأدت بهم إلى مذاهب من الفقر عديدة، ظهرت بارزة في نحول أجسامهم، وخفة حركتهم، ولذلك فقد امتازوا بالسرعة والعدو بنحو لم يكن يعرف إلا عندهم، ولذلك قيل "أعدى من الشنفرى" أو "أعدى من السليك" أو تأبط شراً، مما يشير إلى أنهم كانوا يتميزون بالعدو السريع الذي يعد من أهم أسلحتهم بل ومن أخطرها، وهذا ما يكشف لنا النقاب عن القوة والشجاعة الباهرة التي كانوا يتميزون بها، وإذا تأملنا كثيراً في حياة أكثرهم وجدنا ما يدل على قوتهم وفتكهم، الأمر الذي يحيلنا إلى الخيال أكثر من الواقع.

فيروى عن تأبط شراً أنه إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان إذا نظر إلى قطيع من الظباء انتقى أسمنها وأجودها فجعل يلحقه حتى يمسك به ثم يقتله ويشويه[12]، كما كان عروة من الفرسان الأجواد الكرماء، وكان يهتم بصعاليكه وفقرائه ويجمعهم ويطعمهم[13].

وإذا انتقلنا إلى الشنفرى العداء الآخر فإننا نجده يركز على أشكال القوة والسلاح، وهو ما يدل على السعي الحثيث وراء القوة التي هي مصدر فخرهم وعزتهم. ففي اللامية (لامية العرب) نجده يركز على هذا الجانب في قوله:

وإنـــي كفـــاني فقـــد مـــن لـــيس جازيـــا   بحســـــنَى ولا في قربــــه مُتَعَلــــلُ

ثلاثـــــة أصـــــحاب: فـــــؤاد مشـــــيّعٌ   وأبـــيض إصـــليتٌ وصـــفراءُ عيطـــل[14]

فهو يستغني عن الناس بالقلب القوي الشجاع، والسيف الصقيل، والقوس المتينة.

كما تميز السليك بن السلكة بالقوة والفتك والسرعة، وكذلك عمرو بن براق الذي أكثر من ذكر السيف والقتال في شعره، وغيرهم كثير كانوا لا يفتأون يذكرون الحروب والقتال ويفخرون بذلك، ولعل لعزلتهم عن أقوامهم وجماعاتهم أثر كبير في اتفاقهم، وائتلاف قلوبهم على يد واحدة فقد كان الشنفرى وتأبط شراً وعمرو بن براق عصبة واحدة وهمومهم واحدة وأهدافهم واحدة.

ولذلك وجدناهم يعتزون بهذا كل ما امتثلوه بأشعارهم، فكان ليلهم طويلا ومكانهم خطيرا، ومحيطهم محفوفا بالمكاره والمخاطر، حتى رأينا أحدهم يجعل من الحيوانات المفترسة كالذئاب والأسود والنمور صديقاً له يشاركه أحزانه ويسلي وقته ويقضي ليله. يقول الشنفرى في لاميته:

ولـــي دونكـــم أهلـــون ســـيد عملـــس   وأرقـــــط زهلــــول وعرفـــــاء جيـــــالٌ

هـــم الـــرهط لا مســـتودع الســـر ذائـــع   لـــديهم ولا الجـــاني بمـــا جـــرّ يخـــذلُ[15]

ويقول عمرو بن براق:

ألم تعلمــــي أن الصــــعاليك نــــومُهم   قليـــلٌ إذا نـــام الـــبطين المســـالم[16]

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نلمح أجزاءً من وقائع حياة الصعاليك المتشردة، والتي لم تكن على حال ثابتة بل كانت مضطربة أمام المجتمع المحيط بهم.

ومن هنا فإنه يتراءى لنا بأن الصعلكة نزعة إنسانية نبيلة، وضريبة يدفعها القوي للضعيف والغني للفقير، وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء في مال الأغنياء، وتهدف إلى إقامة العدالة الاجتماعية بين الناس إلا أن هذه النزعة لم تكن متأصلة عندهم جميعاً[17].

ولئن كان شعر الصعاليك قد صوّر صراعهم الشاق مع العقبة الأولى وهي الفقر وآثاره كما رأينا، فإنه أيضاً صوّر صراعهم مع العقبة الثانية مما كان يحول بينهم وبين أخذ

مكانهم الصحيح في المجتمع، أو على الأقل المكان الذي تطمئن إليه نفوسهم ولا يؤذي كرامتهم، ويثبت كيانهم، فإثبات الكيان هو غايتهم.[18]

الحياة الاقتصادية: في حديثنا عن حياة الصعاليك الاقتصادية، سنتكئ على النواحي الاجتماعية لديهم والسلوكيات الشخصية التي تميزت بها نفوسهم، وإذا قلنا إن الفقر المدقع والحاجة الماسة، والعوز الشديد هي الأثر الوضاء في اقتصادهم وما يكتسبونه من مال، لم نكن نغالي في هذا، لكننا سنذكر أبرز أساليبهم الاقتصادية، وطرق عيشهم التي اعتمدت على الإغارة والسلب والنهب.

فقد اتخذوا من هذه الغارات سبيلاً لعيشهم من جهة، وإثباتاً لكيانهم المنزوع من جهة أخرى، فأصبح ذلك مبدأ راسخاً من مبادئهم لا يحيدون عنه، وما يدل على ذلك أنهم لا يغيرون إلا على الأغنياء، والمترفين المنعمين.

وإذا أردنا تلمس آثار الناحية الاقتصادية على الصعاليك، فإنه يجب أن نتطرق للحديث عن الطرق التجارية القديمة التي كانت في شبه جزيرة العرب والتي كانت تسير من خلالها القوافل التجارية المحملة بالبضائع والمؤن والعتاد، فهذه الطرق كانت تزخر بتواجد الصعاليك الذين ينتهزون الفرص ويتحينونها لكي يظفروا بالكسب، خصوصاً تلك الطريق التجارية المؤدية إلى الشام واليمن والمرتبطة بالحجاز وبالتحديد في مكة، فقد كان الصعاليك يقيمون الخطط الحربية التي من شأنها الإغارة على أصحاب تلك القوافل التجارية، وقد رصد د. يوسف خليف في كتابه، أو أطروحته (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي) عرضاً موجزاً وتاريخيا عن التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلكة.[19]

أمر آخر لا بد من الإشارة إليه وهو اهتمام أولئك الصعاليك بأسواق العرب المشهورة كسوق عكاظ، وذي المجاز، ومجنة ونحوها.

ولسائل أن يسأل عن العلاقة بين تلك الأسواق والصعاليك، خصوصاً إذا علمنا أن تلك الأسواق لا يردها إلا التجار والأدباء، والنقاد الكبار ونحوهم ممن هم من طبقات المجتمع الراقية والمعروفة. والإجابة على ذلك هي أن تلك الأسواق كانت تزخر بالتجار الذين يأتون للبيع أو الشراء، وهذا ما يجعلهم يدخلون ضمن مخطط الأهداف التي يريد الصعاليك إصابتها، فيعرفون من خلال ذلك رواد تلك الأسواق وكبارها، وبالتالي يتعرفون على أماكن سكناهم وأساليب معيشتهم ليصبحوا بعد ذلك لقمةً سائغة لهم.

وهنا ملمح آخر أيضاً نجده في الاهتمام بتلك الأسواق، وهو أن تلك الأسواق يعرض فيها الرقيق في أسواق النخاسة المنتشرة، وهذا ما يجعل الصعاليك يحاولون كسب ود أولئك المحتقرين، ليصبحوا في صفهم، يشاركونهم آمالهم وآلامهم وأفراحهم وأتراحهم، وهذا ما دفع بعض الأدباء والباحثين إلى ضم أغربة العرب إلى طائفة الصعاليك.

الذات الأخلاقية:

إن النـاظر في أخبـار الصعاليك وأشـعارهم ليجـد أن هـذه الظـاهرة إنمـا هـي ذات مضـمون إنساني اجتمـاعي، تعمـل علـى وضـع الأمـور في نصـابها، وأنهـا مظهـر مـن مظـاهر الصـراع بـين الفقراء والأغنياء لذا فهي ذات سمة واقعية تكشف عن حس متوهج يرفض الظلم والقهر[20].

والمتتبـع لأخبـارهم وأشـعارهم يجـد أنهـم لم يكونـوا علـى مسـتوى واحـد مـن حيـث الـذات الأخلاقيـة، لكننـا نجـد أكثـرهم وأشـهرهم يتسـمون بقـيم إنسـانية رائعـة، وبـأخلاق كريمـة نبيلة، تنم عن حس وإحسـاس بـالآخرين، خصوصـاً متواضـعي الحـال، فنجـد مـثلاً أبـا خـراش الهذلي[21] يصدر عن صبر وعفة واحتمال للجوع، وكفى بهذه الصفات الزهدية النبيلة.

وإذا خضنا في بحور دواوينهم وجدنا ملامح كثيرة مـن ذلـك، فالسليك بـن السـلكة أشـاد بـامرأة تـدعى فكيهـة، دافعـت عنـه وحمتـه، فوصـفها بصـفات نبيلـة، تشـيد بفضـائل الحمايـة والإباء والنصرة يقول فيها:

لعمـــر أبيـــك والأنبـــاء تنمـــي ... لـــنعم الجـــار أخـــتُ بـــني عـــوارا
مـــن الخفـــراتِ لم تفضـــح أباهـــا ... ولم ترفـــع لإخوتهـــا شـــنارا
ومـــا عجـــزت فكيهـــة يـــوم قامـــت ... بنصـــل الســـيف واســـتلبوا الخمـــارا[22]

وقد ترجم له ابن قتيبة ترجمة وافية في كتابه (الشعر والشعراء)[23].

وإذا انتقلنـا إلى عـروة فإننـا نجـده إنسـاناً رائعـاً، تتجلـى إنسـانيته في اهتمامـه البـالغ بطبقـة الفقراء والمساكين، وكل من هو محتاج، فقد كـان كريمـاً جواداً لا يستمر معه المال، وإنما ينفقه في سبيل الكرم حتى لم يبق عنده ما يقيم أوده. يقول عروة:

إنـــي امـــرؤ عـــافي إنـــائي شـــركةُ ... وأنـــت امـــرؤ عـــافي إنائـــك واحـــدُ
أقســـم جســـمي في جســـوم كـــثيرة ... وأحســـو قـــراح المـــاء، والمـــاء بـــارد[24]

ولـك أن تتخيـل كيـف يضحي بنفسـه شـخص مثـل هـذا، في سـبيل تحقيـق العيش وتـوفير الأكـل للآخـرين، إن مـا يمكـن قولـه عـن ذلـك أنـه عمـل إنسـاني نبيـل، يرقـى إلى الـدرجات الكريمة، والأخلاق الفاضلة الرفيعة التي يتسم بها الصالحون.

وإذا بحثنا عما يصدق ذلك عند الصعاليك الآخرين فإننا نجد قول تأبط شرا:

ولا أتمنـــى الشـــر والشـــر تـــاركي ... ولكـــن متـــى أُحْمَـــل علـــى الشـــر أركـــب
ولســـت بمفـــراحٍ إذا الـــدهر ســـرّني ... ولا جـــازعٍ مـــن صـــرفه المتقلِّـــبِ[25]

وهذا ما يجعلنا نقف حائرين في أمر بعض الصعاليك لما كان يمتاز به بعضهم من صفاتٍ هي من الأخلاق الرفيعة، والصفات الفاضلة. ومن جميل قوله في قصيدته القافية الرائعة والتي بدأها بقوله:

يــا عيــد مالــك مــن شــوق وإيــراق ومــرّ طيــف علــى الأهــوال طّــراق

نجده يفخر فيها بتجشمه الأخطار، والإشادة بكرمه، وإنفاقه المال وعدم الاكتراث به. يقول:

عــــاذلتي إن بعـــض اللـــوم معنفـــةُ وهـــــل متـــــاعٌ وإن أبقيتـــــه بـــــاقٍ

ســـدّد خلالـــك مـــن مـــالٍ تجمّعـــه حتـــى تلاقـــي الـــذي كـــل امـــرئٍ لاقِ

لتقـــرعنّ علـــى الســـن مـــن نـــدم إذا تـــذكرت يومـــاً بعـــض أخلاقـــي[26]

والمتأمـل في هـذه القصـيدة يلاحـظ أنهـا تأسـر النظـر، وتجـذب الانتبـاه لروعـة شـكلها ومضمونها فضلاً عن إيقاعها الموسيقي الرائع.

ومـن الصـفات الـتي امتـاز بهـا أولئـك الصـعاليك: اعتـزازهم، واعتـدادهم بأنفسـهم، كفخرهم بإباء الضيم، وعدم الشعور بالهوان، يقول الشنفرى:

ولكـــنّ نفســـاً حـــرة لا تقـــيم بـــي علـــى الضـــيم إلا ريثمـــا أتحـــول[27]

وقد كانت نفسه شديدة الحساسية وسريعة التأثر.[28]

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، هو هل كل أولئك الصعاليك كانوا على جانب من القيم الإنسانية النبيلة؟ والجواب على ذلك بالطبع يتفاوت سلبا وإيجابا، فلن نستطيع أن نقول نعم، كما لا نستطيع أن نقول: لا، فبعض أولئك الصعاليك قد انفردوا بصفات حميدة كأبي خراش الهذلي، وابنه خراش الذّين كانوا على جانب كبير من الإحساس بمشاعر الآخرين، وهناك عروة بن الورد الذي تميز بإطعام المساكين والفقراء المحتاجين.

والبعض الآخر كان يجمع بين صفات عدة حسنة وسيئة كما هو الحال بالنسبة للسليك، وتأبط شراً، والشنفرى ونحوهم.

على أن ذلك ليس دفاعاً عنهم أو انحيازاً لهم؛ لأن الكل يعلم ما كان يقوم به أمثالهم من سلبٍ ونهبٍ وغدرٍ ونحو ذلك مما هو أيضاً من طبيعة العرب القديمة التي كانت تتخذ من الحروب والغزوات مصدراً لرزقها وسبيلاً لعيشها.

ولكن يجب علينا إنصافهم وإظهار الجوانب المشرقة في دنياهم، وإن كان الحديث عن الذات الأخلاقية لديهم يطول ويطول، ولا سيما عند أولئك الذين دخلوا الإسلام فيما بعد فتغلغل في أعماقهم، ولامس شغاف قلوبهم.

أسباب نشوء هذه الظاهرة وتطورها عبر العصور:

لقد مرّ معنا آنفاً أن الصعلكة، ظاهرة بدت في المجتمع الجاهلي نتيجة ظروف الحياة الصعبة، وشظف المعيشة، وقلنا إنها رد فعل طبيعي في مقابل وجود الأغنياء والمنعمين، ولكن لا بد لنا والحال هذه أن نشير - بوقفات متأنية - إلى الأسباب التي جعلت هذه الظاهرة تتمدد حتى لنجد آثارها في العصر الإسلامي وما بعده.

ومعلومٌ أن الفقر المدقع، وشدة الحاجة، وكثرة الفاقة كانت وراء نشوء الصعلكة، وهذا ما دلت عليه أخبارهم، وساقته لنا أشعارهم، إلا أنه ينبغي التنبيه على أن الحاجة الماسة، والفقر الشديد ليسا هما الدافعين فقط لنشوء هذه الظاهرة، فهناك دوافع كثيرة أسهمت في نشوء الصعلكة وتطورها، وذلك مثل عدم وجود الكيان الجامع والمنفرد، والذي بدوره ينظم شئون تلك الطبقة، ولعل هذا هو ما كانت تتسم به الحياة العربية القديمة وخصوصاً القبلية، فالذي نعرفه أن القبيلة في ذلك الوقت هي بمثابة الحكومة التي تهتم بشؤون رعاياها وتنظم أمور أفرادها المختلفة سواء على الصعيد السياسي أم الاجتماعي أم حتى الاقتصادي. فعدم وجود الحكومة - إن صح التعبير - التي من دورها أن تتبنى أمثال هؤلاء وتراعي حقوقهم، وتنظم مصالحهم، كان فيما يبدو الأثر الفعال في التمرد والعصيان.

إضافة إلى ذلك فإن تمرد أولئك الصعاليك على أقوامهم، وانحلالهم من ربقة السلطة المشرعة لهم أسهم هو الآخر في إذكاء نار العداوة، وتأجيج البغضاء بين هؤلاء وأقوامهم وقبائلهم، الأمر الذي جعلهم ينتهكون الأعراف المقررة، والتقاليد والشرائع المسنونة.

يضاف إلى ذلك أيضاً طبيعة الأرض من جهة، وطبيعة الحياة من جهة أخرى، فحياتهم لا شك أنها كانت مليئة بالمكاره، ومحفوفة بالمخاطر، وطبيعتهم هي طبيعة الصحراء اللافحة بحرارتها الشديدة المزعجة، وبرودتها القارسة المؤلمة، ولذلك وجدنا فيهم القدرات الجبارة، والصفات الخيالية، والسمات البطولية التي تتلاءم مع طبيعتهم، وتتوافق مع ظروف عيشهم الصعبة.

ويبدو أن التوازن المفقود بين ثنائيات الغنى والفقر، والجاه والصنعة، والمكانة والمهانة، هو مجمل ما يمكن أن نقوله عن أسباب نشوء تلك الظاهرة.

وقفة تاريخية:

فيما يتعلق بامتداد هذه الظاهرة عبر التاريخ، فإنه لا شك أن نشأتها كانت في العصور الجاهلية، باعتبارها ظاهرة وليست حدثاً، لكننا لا نستطيع التحديد الزمني الدقيق لبداياتها

في تلك الأزمان؛ ذلك أنه يتعسر على الباحث في تلك الحقب أن يحدد الفترة الجاهلية الموغلة في القدم، فما يعرف عن العصر الجاهلي لا يكاد يتعدى القرنين ونصفا من الزمن، ومن هنا فإنه ليس بوسعنا التحديد الدقيق لنشوء بدايات الصعلكة، إلا أن ما يمكن قوله إنها أصبحت ظاهرة بارزة في العصر الجاهلي.

وعندما جاء الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، كان لزاماً أن تتغير مظاهر الصعلكة، وأن تختلف أساليب عيشهم، ومكاسب رزقهم؛ ذلك أن الإسلام وضع القوانين العادلة، وسن للناس طرق عيشهم ورزقهم، وتكفّل بحفظ حقوقهم وضمن لهم عوامل العيش الآمن، والرزق المكتوب، فكان من الطبيعي والحال هذه أن يتأثر بذلك الصعاليك حينما دخل بعضهم في دين الله، فتغيرت لدى الصعلوك الصورة، واتضحت له الرؤية، فأصبح سائراً بتعاليم الدين الحنيف لا يحيد عنه.

وخير من يمثل هذا الجانب عندهم أبو خراش الهذلي، فقد كان في الشطر الأول من حياته صعلوكاً نشيطاً عاملاً، أما الشطر الثاني من حياته في الإسلام فدخل في دين الله، وآمن وحسن إسلامه، وانقاد لتعاليم الدعوة الجديدة انقياداً ظهرت آثاره على سلوكه، فإذا هو لا يغزو ولا يغير، ولا يثور للأخذ بالثأر، وكأنه لم يكن صعلوكاً.[29]

على أن هذا مثال لمن تأثر بهذا الدين الجديد، غير أن هنالك من أسلم، لكن تأثره بات قاصراً عن التفاعل والتأثير، مثل أبي الطمحان القيني (وهو حنظلة بن الشرقي، وكان فاسقاً)[30] فهو وإن أقصر عن الغارات والسلب إلا أنه كان ميالاً لها بشكل كبير يدل على ذلك تحسره وحنينه إلى تلك الأفعال.

وهناك من لم يتأثر أبداً بهذا الدين، كما نجد مثلاً عند فرعان بن الأعرف التميمي (وكان شاعراً لصا يغير على إبل الناس)[31].

وإذا سرنا مع العصور الإسلامية وبالتحديد عصر بني أمية فإن الصعاليك لا يكادون يختفون عن ذلك المجتمع، بل إن مآربهم وأهدافهم أصبحت أكثر توسعا، فنشأت نتيجة لذلك طبقات كان هدفها ماديا وأخرى سياسيا، وأخرى معيشيا كما هو الحال في السابق، لكنهم لم يكونوا يسيرون على خطى سابقيهم من السلب والنهب والإغارة، ولعل مرد ذلك وجود الكيان الحكومي الصارم الذي ينظم المصالح ويشرع القوانين.

وقد كان منهم من لا يأبه ولا يكترث لتلك السلطة كما نجد عند مالك بن الريب المازني التميمي الذي طلبه الحجاج عندما أعلن ثورته ضده، وبين أن وطنه كبير في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن هنا فقد كان العصر الأموي حافلاً بكثير من الشعراء اللصوص المتصعلكين ممن لم يقلّوا عن سابقيهم في العصر الجاهلي، إن لم يزيدوا عليهم، ونذكر منهم: القتال الكلابي، ومالك بن الريب، وجحدر بن مالك الحنفي، وأبا النشناش التميمي وغيرهم، ممن طلبهم السلطان فعاشوا في الجبال والبوادي يمارسون نشاطهم[32].

أما في العصر العباسي فإن حركة الصعلكة اتخذت شكلاً مغايراً، واختلافاً بيناً لا بظهور طبقة جديدة منهم، بل باختلاف وسائلهم وتغير أعمالهم، فكان هناك الفقراء البائسون، وهناك اللصوصيون، وأيضاً هناك الطفيليون، وكانت لكل طبقة مظاهرها ووسائلها الخاصة بها[33].

الخصائص الفنية والنفسية للشعراء الصعاليك:

السمات العامة لشعرهم: يمكننا أن نجعل شعر الصعاليك شعراً منفرداً أو مستقلاً بشكل أو بآخر عن المنهج العام للشعر القديم الذي كان يعتمد على أصول ومناهج يسير عليها الشعراء الجاهليون، فحين كان الوقوف على الأطلال، ووصف المحبوبة، وذكر الخمرة ونحوها من الأسس المنهجية للقصيدة العربية، وجدنا ذلك نمطاً مختلفاً عند الصعاليك الذين كانوا لا يهتمون بذلك كثيراً؛ نظراً لطبيعتهم وسوء ظروفهم، وتنكرهم لعادات قبائلهم وأعرافها المعهودة.

من هنا تمردوا على التقاليد الاجتماعية، ولهذا فتنكرهم للتقاليد الفنية المتمثلة بالشعر من باب أولى.

إن مما اتسم به شعر أولئك الشعراء: الارتجال عند بعضهم الأكثر، فلو تنقلنا بين دواوينهم الشعرية لوجدنا مقطوعات قصيرة تنم عن ظاهرة ارتجالية أملاها عليهم الموقف الذي عاشوه، لكن ما يميز ذلك أنه ارتجال صادق، وتعبير ذاتي من أعماق نفس منكسرة ومتأثرة، نلحظ ذلك في كثير من أشعار عروة بن الورد مثلاً وتأبط شراً، والسليك، والشنفرى وغيرهم.

على أننا نلحظ ملمحاً آخر في تلك المقطوعات وهو خلوها من تعدد الأغراض، والتزامها بالوحدة العضوية والموضوعية (فلم يعد الشعر عندهم وقوفاً على الأطلال، ووصفاً للرحلات، ولا غزلاً في النساء، وثناءً على الرجال، واستجداء لذوي اليسار داخل الجزيرة أو خارجها، بل أصبح الشعر تعبيراً عن النفس وإصلاحاً للمجتمع، أو توجيهاً للأصدقاء والمقربين، وكل قصيدة فيه تستقل بموضوع واحد يجمع شتاتها، ويعطيها وحدة موضوعية (...) وهذه الوحدة موجودة غالباً في شعر سائر الصعاليك، وإن كانت تتفاوت في مدى تماسكها)[34].

ومما يميز شعرهم ويلفت انتباهنا له هو ذلك الجانب القصصي الذي أودعوه أشعارهم. ونظرة إلى لامية العرب للشنفرى مثلاً تريك هذا الملمح القصصي الذي تضمنه حكم صادقة، وتجارب واقعية، جعلته يتفنن في أسلوب وصفي جميل، وإن كان فيه خشونة في الأفكار، وبعض الغرابة اللفظية المستمدة من بيئة الجاهلية. يقول:

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهلُ

وأستف ترب الأرض كيلا يرى له ... علي من الطول امرؤ متطوّلُ

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت ... خيوطة ماريٍّ تغار وتفتلُ

وتشرب أساري القطا الكدر بعدما ... سرت قرباً أحناؤها تتصلصلُ

هممت وهمت وابتدرنا وأسدلت ... وشمر مني فارطٌ متمهِّل[35]

وهي قصيدة تتكون من 68 بيتاً يصور فيها واقع حياته الأليمة وتجربته المريرة.

يستمر في تصويره للأحداث ببراعة فائقة، فلا يترك شاردة أو واردة تفوته، فأراد أن يصور لنا نفسه في كل حركاتها: فهو كالأفعى يتسلل في الرمال حافياً، يسرى من همومه بالصبر على كل مكروه (...) حافياً يركض بسرعة أكثر.[36]

ونظرة أخرى على هذا الجانب القصصي في أشعارهم فإننا نلحظ التصوير لديهم كان من واقع البيئة المعيشة، ولا ريب في ذلك إذا وجدناهم يكثرون من ذكر الصحاري والوحوش وما فيها من الغول في هدأة الليل وتلامع النجوم، وذكر الأفاعي والحيات كما فعل تأبط شراً مثلاً في قافيّته الشهيرة أو الشنفرى في لاميته، ولذا أكثر أيضاً من ذكر الحيوانات أنيساً له في ليالي الصحراء المظلمة، كما فعل الأحيمر السعدي[37] المتأخر عنهم، فقد قال ذات مرة:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصوّت إنسان فكدت أطير[38]

وكثير هم الذين جعلوا من حياتهم الصحراوية وطبيعتهم القاسية، لوحات فنية رائعة رسمتها لهم المشاعر والأحاسيس الصادقة.

بل إننا نجد من القصص التي يذكرونها في أشعارهم ما هو إلى الخيال الخرافي أقرب، ومع ذلك نجدهم يوردونها دليلاً على تصوير كل ما من شأنه أن يكون ذا صلة بواقعهم.

كما فعل تأبط شرا عندما أشار إلى الغول في رحى بطان وقيل إنه تأبطها؛ ولذلك سمي تأبطاً شراً وفي ذلك يقول:

ألا من مبلغ فتيان فهم ... بما لاقيت عند رحى بطان

وإنـــي قـــد لقيـــت الغـــول تهـــوي بســـــهبٍ كالصـــفيحة صحصـــحان[39]

وبهـذا نسـتطيع القـول بـأنهم قـد رسمـوا حيـاتهم رسمـاً جغرافيـا ونفسـيا ، كـان الغـذاء الأساسي فيه هو ذلك الغرض الذي نشأ مع فطرة الإنسان منذ القدم وهو غرض الوصف.

وإذا أردنا الحديث عن الناحية الشكلية لأشعارهم فإننا لا نكاد نمسك بخيط واحد ، أو رحـى ثابتـة ، فقـد تنوعـت أسـاليبهم اللفظيـة ، واسـتخدامهم للمعـاني ، وتصـويرهم للوقـائع باختلاف طبائعهم وسلوكياتهم ، وباختلاف الحادثة أو المناسبة.

ومـن هنـا فإنـه يبـدو لـي أن اللاميـة (لاميـة العـرب للشـنفرى) قـد جمعـت قـدراً كـبيراً مـن الألفاظ الخشنة ، والأساليب الوعرة ، وإن كانت لم تخل في مجملها من ألفـاظ عادية وأسـاليب مألوفة ، إلا أن السـمة العامـة لهـا هـي الغرابـة الـوعرة؛ ومـرد ذلـك الحـديث عـن جانـب قصصـي سـردي ، يرسـم فيـه الشـاعر جملـة مـن الصـور المتضـمنة للغرابـة ، كوصـف الحيـوان والطـير ، والأفاعي ، والحديث عن الليل والنجوم وظلمة الصحاري.

لكننـا في ذلـك لا ننكـر أن أهـم مـا يميـز شـعر الصـعاليك هـو تلـك السـهولة اللفظيـة والأساليب المألوفة العادية في أشعارهم ، فلا نحتاج في بعض قصـائدهم إلى رجوع إلى المعـاجم ، أو البحث عن ألفاظ بديلة ، وإنما نجد شـعراً مستسـاغاً وسـهلاً ، ولكـن لـيس عنـدهم جميعـاً ، ويعزى ذلك إلى النبرة الحزينة أو الإحساس بالدونيـة ، وإظهـار الصـبر وتحمـل الفاقـة والحاجـة ، وإذا بحثنا عن ذلك عند تأبط شراً فإننا نجد مثيلاً لذلك قوله:

يـــا عيـــد مالـــك مـــن شـــوق وإيـــراق ومـــرّ طيـــف علـــى الأهـــوال طـــراق

يســـرى علـــى الأيـــن والحيـــات محتفيـــاً نفســـي فـــداؤك مـــن ســـارٍ علـــى ســـاقِ

ولا أقـــولُ إذا مـــا خلـــة صـــرمت يـــا ويـــح نفســـي مـــن شـــوقٍ وإشـــفاقٍ[40]

وإذا تجولت في بعض قصائد عمرو بن براق ، تطالعك أساليب السهل الممتنع فلا هو بغريب صعب ، ولا هو بسهل رقيق وإنما فيه الوسطية بين ذلك. اسمعه يقول:

تقـــول ســـليمى لا تعـــرِّض لتلفـــة وليلـــك مـــن ليـــل الصـــعاليك نـــائمُ

وكيـف ينـام الليـلَ مـن جـلُّ مـا لـه حســـامٌ كلـــون الملـــح أبـــيض صـــارم

ألم تعلمـــي أن الصـــعاليك نـــومهم قليـــلٌ إذا نـــام الـــبطين المســـالم[41]

ومن هنا يمكننا القول إنهم لم يعتمدوا السهولة اللفظية منهجاً عاما يسير عليه معظمهم، كما لم تتسم أشعارهم جميعها بالخشونة والغرابة، وإنما راح كل منهم يصدر عن عواطفه ومشاعره، متأثراً بظروف عيشه وطبيعته.

أما فيما يخص ***موضوعات*** شعرهم فقد أشرنا أنها منتقاة من طبيعتهم وظروف عيشهم فوصفوا الصحارى، وما تحويه من جمادات وحيوانات ونباتات، بل حتى الحشرات، لا سيما أنها متلائمة وظروف معيشتهم الصعبة، بل إن بعضهم يستأنس بها كما هو عند الشنفرى، كما وصفوا الليل والنهار وما يعانونه من بردٍ قارس، أو حرّ قائظ ونحو ذلك كثير مما سبق وأن تطرقنا إليه.

وفي أغراض شعرهم نقف أمام شعراء مثلهم مثل غيرهم من شعراء العربية نظموا في الوصف، والمدح، والرثاء، والهجاء، والغزل والفخر ونحو ذلك، فأما الفخر فإننا نجده بصورة فاعلة لديهم، ذلك أنهم أُشعِروا بالمهانة والضعف، فكأنهم أرادوا إثبات ذاتهم، فراحوا ينظمون أبياتاً يعتزون بها، ويشيدون من خلالها بصفاتٍ الأكابر، فطرقوا من خلال ذلك ذكر الكرم وإطعام المحتاجين، كما نجد عند عروة بن الورد، وأبي خراش الهذلي، وراح آخرون يعتزون بإغارتهم وسلبهم ونهبهم الآخرين، يمثل ذلك مثلاً قول أبى خراش الهذلي:

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً   وأنجو إذ ما خفتُ بعض المهالك[42]

ومر معنا كيف كان عروة يعتز بإطعام المساكين، وإعانة المحتاجين. وأما الوصف فقد أسلفنا إلى مظاهرهم وتفننهم فيه، فوصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم، وتناسق مع أنماط حياتهم، فإضافة إلى ما ذكرناه من وصفهم، فقد أبدعوا أيضاً في وصف سلاحهم وعدتهم وأدواتهم التي كانوا يفتكون أو يغيرون بها، كما وصفوا الوسائل التي كانت تقلّهم وتحملهم على ذلك من فرس أو خيل أو نوق أو نحو ذلك.

فقد كان للسليك فرس يقال له "النّحام" وقد قال يرثيه:

كأن قوائم النحام لما   تحمل صحبتي أصُلاً مَحَارُ

وإذا انتقلنا إلى المدح فإن ما يميز مدح الصعاليك، هو صدوره عن رغبة وإعجاب كما هو معروف عند الجاهليين الذين لم ينزعوا إلى التكسب بالمديح، والتزلف به كالنابغة والمتلمس وطرفة، وعمرو بن كلثوم، وزهير بن أبي سلمى، وأضرابهم، إلا أن هناك من الصعاليك من كانوا يتكسبون بشعرهم كما هو الحال عند أبي الطمحان القيني، وبكر بن النطاح.

ولعل ما يمثل المدح الصادق عند الصعاليك، ما نجده مثلاً عند تأبط شراً حينما مدح ابن عمه شمس بن مالك:

وإنـــي لمهـــد مـــن ثنـــائي فقاصـــدُ ... بــه لابــن عــم الصــدق شمــس بــن مالِــكِ
أَهُـــزُّ بـــه في نـــدوة الحـــي عطفَـــهُ ... كمـــا هـــزّ عْطِفـــِ بالهجـــان الأوراك
يـــرى الوحشـــةَ الأنـــسَ الأنـــيسَ وتهـــدي ... بحيـــث اهتـــدت أم النجـــوم الشـــوابكِ[43]

وأما الهجاء فلم تخل أشعارهم منه، لا سيما وأنهم قد يتعرضون لكثير من الصدامات العنيفة، والتي جعلتهم يخوضون في هذا الغرض كثيراً، فمن ذلك قول فضالة بن شريك:

ألا أيهـــا البـــاغي القـــرا لســـت واجـــداً ... قـــراك إذا مـــا بـــت في دار عاصـــم[44]

وأما الرثاء فهو أيضاً كثير لديهم، ولعل من أجمل المراثي في الشعر العربي تلك اليائية الجميلة التي رثي فيها مالك بن الريب نفسه:

ألا ليـــت شـــعري هـــل أبـــيتن ليلـــةً ... بجنـــب الغضـــا أزجـــي القـــلاص النواجيـــا
تـــذكرت مـــن يبكـــي علـــيّ فلـــم أجـــد ... ســـوى الســـيف والـــرمح الـــرديني باكيـــاً[45]

لكن هذا من قبيل الشعر الذاتي الذي يتسم بالحرقة واللوعة، لا سيما وأنه رثاء للنفس في موقف عصيب وظرف حالك.

ومن ذلك رثاء تأبط شراً لصديقه الحميم الشنفرى، فقد رثاه ذاكراً شجاعته وبطولته:

علـــى الشـــنفرى ســـاري الغمـــام فـــرائح ... غزيـــر الكُلَـــى أو صـّــيب المـــاء بـــاكرُ[46]

وهنـاك مـراثٍ جميلـة للصـعاليك اتسـمت بـالحزن المتـدفق الـدمع، والحرقـة المصـحوبة بالأسى، كما نجد عند أبي خراش الذي كانت له مراثٍ كثيرة.

وأما الغزل فالصعاليك كغيرهم من الشعراء، تنتابهم العواطف الجياشة تجاه المحبوبة، ولذلك يصفونها بصفاتٍ كثيرة سواء حسية أم معنوية، فمثلاً الشنفرى يقول:

وَمْرقَبـــةٍ عنقـــاءَ يقصـُــرُ دونهـــا ... أخـــو الضـّــروة الرجـــل الحفـــي المـــخفف
نعبـــت إلى أدنـــى ذراهـــا وقـــدنا ... مـــن الليـــل ملـــتفُّ الحـــديقة أســـْدَف[47]

وقول السليك يصف امرأةً أجارته بصفات جميلة:

كـــأن مجـــامع الأرداف فيهـــا ... نقـــى درجـــت عليـــه الـــريح هـــاراً[48]

الذاتية في شعر الصعاليك بين الأنا والآخر:

توطئة: الذاتية الفردية في الشعر نقصد بها: ما يترجمه الشاعر أو الأديب بشكل عام من آلام النفس وآمالها، وأفراحها وأتراحها، كنبرةٍ تكون نابعة من أعماق شعوره الوجداني، مستخدماً في ذلك ضمير "الأنا" لا "نحن" فإذا هو يتحدث عن كل ما هو ذو صلة وعلاقة بنفسه.

ولقد عرفنا هذا النمط من الشعر منذ نشأة الشعر العربي، ومنذ كان العربي في القديم يترنم مع وقع أخفاق إبله وحدائها، فيصدر الألحان ممزوجة بألفاظ معبرة عن شعوره.

لذلك فإن الاتجاه الوجداني الذاتي، والصادر من أعماق النفس، نلمس آثاره مع بداية الشعر، فهو مرتبط بنشأة الإنسان، إلا أن وطأته بعد ذلك أخذت تقل، وأصبح أثره مقتصراً على من يعانون آلام الحياة ومشاكلها.

ولنعلم أنه من الصعب بمكان أن نحدد سلوك أي شخصية أدبية، أياً كانت، ونلم بظروف حياتها، والأحاسيس والمشاعر التي تميزت بها، وجعلتها أثراً بارزاً، ولذلك فإن هذا يتطلب منا الإلمام بملابسات حياة الأديب وظروف عيشه الخاصة، والتي كان لها دور بشكل أو بآخر في إبراز ذلك الأثر الوجداني وهذا الاتجاه الذاتي لديه.

والذاتية التي نريد الإشارة إليها لا تقتصر على غرض دون آخر، لكنها تتوقد في أغراض دون أخرى، ولنأخذ مثالاً على ذلك يوضح لنا المدى الذي وصلت إليه النفس الإنسانية من تصوير للأحاسيس الدفينة، والمشاعر العميقة التي صاغتها تجارب الحياة المريرة، يقول طرفة بن العبد:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكا الطول المرخى، وثنياه باليد

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأنباء من لم تبع له ... بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

لعمرك ما الأيام إلا معارة ... فما أسطعت من معروفها فتزوَّدِ

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه ... فإن القرين بالمقارن يقتدي[49]

لقد ساق طرفة هذه الأبيات في معلقته الشهيرة، بألفاظ جميلة، ومعانٍ طالما تحدثت عن نفسه وتطلعاتها تجاه الحياة، ولذلك أتى فيها بالمعجب من الحكم والأمثال، التي كانت حصيلة تلك الذاتية الفردية المعبرة عن الأحاسيس الوجدانية.

وفي جانب آخر يطالعنا مثلاً عنترة الذي جعل شعره، سلاحاً من أسلحة قوته المعروفة عنه، فإذا هو يحدثنا عن نفسه كثيراً، بل حتى وهو في حال سكره، حيث يقول:

فـــــإذا شــــــربت فــــــإنني مســـــــتهلك   مــــــالي وعرضــــــي وافـــــرٌ لم يُكْلَـــــمِ
وإذا صــــحوتُ فمــــا أقصّـــــر عـــــن نــــدى   وكمــــا عَلمـــــتِ شمــــائلي وتكرمـــــي[50]

وهذا ما نجده واضحاً جليا عند الشعراء السود، الذين ما فتئوا يظهرون أنفسهم ويثبتون ذاتهم، لا سيما وهم يحسون بالازدراء، ويشعرون بالنقص من قبل الآخرين.

ولعل عقدة اللون كانت تحوط الشعراء السود بكثير من الإحساس بالدونية، ولذلك كانت حياة عنترة ممثلة لهذا الجانب مع أنه كان حامي قبيلته، ظلت تعذبه، وكانت ترهق نفسه، وهذا هو الضيق نفسه الذي أحسه السليك بن السلكة، وهو يرى خالاته يقمن بعملية الحلب:

فلــــو كنـــــت ورداً لونــــه لعشــــقنني   ولكـــــن ربــــي شــــانني بســــواديا
فمــــا ضــــرني أن كانـــت أمــــي وليــــدة   تصــــر وتــــبري باللقــــاح التواديـــا[51]

الذاتية في شعر الصعاليك:

قد يكون شعر الصعاليك بصفة عامة هو الممثل الحقيقي لبروز الذاتية في أشعارهم؛ ذلك لأنهم أحسوا بالظلم والازدراء، أو الخلع والطرد والتشريد، فكان من الطبيعي أن تنشأ لديهم، هذه الظاهرة الذاتية، إلا أنهم كانوا يقصدونها عرضاً، وما كانوا يقصدونها غرضاً، يظهر ذلك في شعرهم تلقائيا، واستجابة لظروفهم، بل إن طبيعتهم الحادة، وبيئتهم الموحشة جعلتهم يلجأون إلى ذلك فظهرت الذاتية بارزة في شعرهم.

وإذا كان الشاعر في العصر الجاهلي شاعراً قبلياً، أي أنه يقف فنه الشعري على قبيلته ينافح عنها، ويعلي من شأنها بين القبائل، ويذيع محامدها، ويسجل مفاخرها وانتصاراتها، فإن هناك نزعة جديدة ظهرت في العصر الجاهلي، وكانت نتيجة لموقف القبائل من بعض أفراد مجتمعاتها، هذه النزعة هي تلك التي تبناها الشعراء الصعاليك (...) هذه الجماعة من الصعاليك نفضت يديها من آمال القبيلة، فنمت فيها الفردية الذاتية حتى صار الواحد منهم يدور في شعره حول ذاته، وقد يشرك معه أولئك الذين تفيئوا ظلال سيفه ورمحه، ونتيجة لذلك وجد في الشعر الجاهلي شعر ذاتي اتسم بسمات منها: الفردية التي أملاها عليه واقعه، والوحدة الموضوعية التي أملاها انفصاله عن مجتمعه القبلي، ثم القصصية التي أضفاها على شعره، حديثه عن ذاته رغبةً وآمالاً.[52]

ولم تكن الذاتية الفردية، اقتصاراً على خلجات نفس الشاعر وحده، وإنما كان يشرك دائماً معه، من يبادلونه الإحساس ذاته، ويتجاوبون مع الصدى المنبثق من أعماق نفسه، ولهذا نرى عروة بن الورد أمير الصعاليك طالما تحدث عن هذا الجانب، فإذا هو يشرك الفقراء معه، ويخصص ماله لهم، بل وحياته، رمزاً للتضحية الدالة على الوحدة الذاتية، يقول عروة:

أتهـــزأ مـــني أن سمنـــتَ وأن تـــرى ... بجســـمي مـــن الجـــوع والجـــوع جاهـــد

لأنـــي امـــرؤ عـــايـ في إنـــائي شـــركة ... وأنـــت امـــرؤ عـــايـ في إنـــائك واحـــد

أقســـم جســـمي في جســـوم كـــثيرة ... وأحســـو قـــراح المـــاء والمـــاء بـــارد[53]

وهذا دليل على السخاء والإيثار، الذي جعل عبد الملك بن مروان يعجب به، ويزعم أن من جعل حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة.[54]

وهذا يدل على أن هذه الذاتية قد تكون فردية كما هي عند العموم من الصعاليك، وقد تكون جماعية الأحزان والهموم، ومشتركة الأحاسيس والمشاعر، كما رأينا عند عمرو بن براق الذي صوّر ذلك في قوله:

ألم تعلمـــي أن الصـــعاليك نـــومُهم ... قليـــل إذا نـــام الـــبطينُ المســـالم[55]

ومظاهر الذاتية في شعرهم كثيرة لا نستطيع تلمس جوانبها من جهتين، الأولى: كثرة أولئك الشعراء، واختلاف بيئاتهم وطبائعهم، وأساليب عيشهم.

أما الثانية: أن الغوص كثيراً في هذا الجانب الذاتي يحتاج منا إلى الإلمام والتعرف على علم النفس، حتى يمكننا من خلال ذلك تحديد المظاهر الأكثر والأبرز فيما يتعلق بذاتيتهم، ودراسة سلوكياتهم، وآثارها على أنفسهم، وما يتبع ذلك من دراسة المشكلات والعوائق النفسية.

ودوافع هذه الذاتية ومظاهرها النابعة منها كثيرة وقد أشرنا إلى جملة منها، إلا أنه لا بأس من القول بأن القوة التي يتطلبها موقفهم، والإحساس بالدونية، والصراع الداخلي مع النفس، والشعور بالضياع هي أهم الدوافع التي أوجدت لنا مثل تلك الهموم الذاتية، والصراعات النفسية التي تهدف إلى إثبات الكيان، وإبراز الذات.

ويتضح مما سبق أن شعر الصعاليك ذاتي، إلا أن هذه الذاتية ليست ذاتية اصطلاحية كالتي يعرفها نقاد الأدب الغربي في الرومانتيكية، تلك التي تعتمد في مصدرها على الروحيات، وفي كيانها على مشاعر الفرد، وسبحاته نحو الطبيعة والخيالات (...) ولكن ذاتية الصعاليك شيء آخر، فهي ذاتية حية متحركة، وذاتية متميزة محددة، لا تلتبس بغيرها

(...) وإنما نعني أن ذاتيهتم كانت طابعاً خاصاً بهم، لم يستوحوه من نقد أو مذهب شعري ولا من ثقافة البيئة واتجاهها الأدبي، ولا من شيء آخر إلا حياتهم الشخصية، وأحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة[56].

إن الذاتية التي ميزت أشعار الصعاليك هي ذاتية من طراز فريد قد لا يكون لها مثيل في أشعار الآخرين من غير الصعاليك، فنجد الشعراء كثيراً ما يتحدثون عن همومهم وأحزانهم، إلا أن هذا الاتجاه يتميز ويتألق في شعر الصعاليك؛ لأنهم لا يتحدثون عن علاقة الفقر مثلاً، أو الطرد، أو الخلع، أو الصراع، أو نحو ذلك من وجهة عامة كما هي عند الغير؛ وإنما يتحدثون من حيث علاقتهم بتلك المظاهر، وإحساسهم بها، وتأثرهم بها، وتمكنها من نفوسهم، وكيفية علاجهم لها ومن هنا نلاحظ أن ضمير الجماعة (نحن) الذي رأيناه أداة للتعبير عند شعراء القبائل، لم يعد أداة التعبير عند الشعراء الصعاليك، وإنما أداة التعبير عندهم ضمير الفرد (أنا) كما نلاحظ أن مادة شعرهم ليست مشتتة من شخصيات قبائلهم، ولكنها مشتقة من شخصياتهم الفردية، وما تفيض به من ثورة على المجتمع القبلي وتمرد عليه وتحدٍّ له، وبمعنى آخر، فشخصية الشاعر الصعلوك شخصية يشاركه فيها أفراد جماعته من الصعاليك، لأنهم جميعاً يؤمنون بمذهب واحد، أو يدينون بعصبية مذهبية واحدة، يشقون طريقهم في الحياة على أساسها، ولهذا نلاحظ أنّ شخصية الشاعر الصعلوك إلى جانب فرديتها فيها جانب جماعي، ولسنا نعني بالجماعية فناء الشاعر الصعلوك في جماعته فناء يشبه فناء الشاعر القبلي في قبيلته، وإنما نعني بها ذلك التشابه أو الاشتراك بين أفراد جماعة الصعاليك في المقومات الشخصية، وقد ترتب على ذلك ظهور ضمير الجماعة (نحن) من حين إلى حين في شعرهم، ولكنه ليس الضمير الذي نراه عند شعراء القبائل، وإنما هو التعبير عن الهم الجماعي المشترك المتلائم مع الظروف والمتوافق مع ذلك المجتمع الذي يعيش فيه الصعاليك.[57]

اتجاهات الذاتية عند الصعاليك عبر العصور:

الاتجاه الذاتي عند بعض المخضرمين: بما أننا أطلنا الحديث عن صعاليك العصر الجاهلي، وتطرقنا إلى جانب الذاتية في شعرهم، فإنه من الجدير بنا أن نتلمس الآثار الذاتية عند الصعاليك فيما بعد العصر الجاهلي، لا سيما وأن هذا الأثر ظل ملازماً لهم، لأنه يشيع فيه هموم النفس وآمالها وآلامها، فعند ما جاء الدين الجديد، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، تغيرت حياة الناس، وخرجوا من الظلمات إلى النور، وتحولت نمطية الحياة عندهم من الأسوإ إلى الأحسن، وهذا ما أثر في الشعراء الصعاليك بعد ذلك فكف أكثرهم عن السلب والنهب والغزو؛ نظراً لحرمة ذلك في الإسلام، كما خفت حدة الغضب، ووطأة العنف التي

كانت سائدة في القبائل تجاه أفرادها، إلا أن بعض رواسب الصعلكة ظلت مستمرة عند بعضهم، وإن تخلص أكثرهم من أساليبها الرئيسة كالسلب والغزو ونحوه.

وبذلك قضى الإسلام على الدوافع التي كانت تشعل الصعاليك في الجاهلية، وتدعوهم إلى التمرد والثورة، فأما الفقراء فقد أجرى عليهم وعلى أمثالهم من أموال الأغنياء ما ضمن لهم أسباب المعاش، وأما الخلعاء فانتهوا؛ لأنه لم يعد من حق القبيلة أن تخلع ابنها وتطرده تخلصاً من شروره وجرائره، فيهيم على وجهه، ويحترف الإغارة والغزو طلباً للسلب والنهب، وسعياً وراء أسباب الحياة، وإنما أصبح من حق الدولة أن تقيم الحد عليه، وتنزل العقاب به، تأديباً له وصيانة للمجتمع من آثامه وجناياته وانحرافاته، وأما الأغربة السود من أبناء الإماء فقد سوى الإسلام بينهم وبين أبناء الحرائر وجعل لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات.[58]

وقد تغيرت النظرة إلى الصعاليك في الإسلام فبعد أن كانت الصعلكة مجالاً للفخر وميداناً للتنافس ومحلاً للإعجاب، أصبحت موضعاً للسخط والإنكار، والاحتقار، وكان الصعاليك في هذا العصر أكثر اختلاطاً واجتماعاً منهم في الجاهلية، مع أنهم احتفظوا بالطابع العام لشخصية الصعاليك، وهو ما أشرنا إليه من الصلابة والتمرد والاعتداد بالذات، إلى حد الاستهانة بكل شيء[59].

وما يهمنا في هذا الجانب بعد هذه اللمحة الموجزة، هو الجانب الذاتي المتمثل في أشعار تلك الحقبة، ولذلك فإننا سنختار بعض النماذج من الشخصيات التي تمثلت هذا الاتجاه وسنعرض للجوانب والآثار الفردية الذاتية في أشعارهم، فمن أولئك مثلاً: أبو خراش الهذلي، والذي كان معدوداً من فتاك العرب وشجعانها لقوته وصلابته، والمتأمل في حياته يجده يجمع من صفات الصعلكة أشياء كثيرة من القوة والصلابة وسرعة العدو، ونحوها من صفات الصعاليك المعروفة.

فمن الأبيات الشعرية التي تمثل ذاتيته والتي ضمنها - كما هم الصعاليك - حديثاً عن الفقر وآلام النفس، والاكتفاء بما يقيم الصلب والأود، ونحو ذلك. يقول: وقد ضمنها بعض الحكم الجميلة بنبرة من الحزن والأسى:

وإنـــي لأثـــوي الجـــوع حتـــى يملـــني	فيـــذهب لم يـــدنس ثيـــابي ولا جرمـــي
وأغتبـــق المـــاء القـــراح فأكتـــفي	إذا الـــزاد أمســـى للمـــزلج ذا طعـــم
مخافـــة أن أحيـــا بـــرغم وذلـــة	ولَلْمـــوت خـــير مـــن حيـــاة علـــى رغـــم[60]

فنحن نجد هنا كيف قام أبو خراش بتصوير حالته النفسية وتحامله للجوع، وفخره بذلك واكتفائه بشرب الماء، وتفضيله للموت إذا لم يكن منه بد، وكل هذا إنما ينم عن إحساس عميق، وشعور بالذات ممزوج بالهم والألم.

ومن الشعراء الصعاليك من تأثر تأثراً واضحاً بالإسلام، وحسن إسلامه وأعلن توبته النصوح، فإذا هو يحول شعره لإعلان التوبة والندم، ومحاسبة الذات، والشعور الصادق بالنفس، نلحظ ذلك مثلاً عند يزيد بن الصيقل، فقد تحدث عن توبته وسعادته بإسلامه، وصنع الحكم في ذلك كما هي عادة شعراء الصعاليك الذين إذا ما تحدثوا عن إحساس وشعور حاد أو حزين، فإنهم سرعان ما يضمنون التجربة الشعورية التي تنبئ عن الحكمة في أشعارهم. يقول يزيد بن الصيقل:

وإنّ امــرأً ينجــو مــن النــار بعــد مــا   تـــزود مـــن أعمالهـــا لســـعيد

إذا مـــا المنايـــا أخطأتـــك وصـــادفت   حميمـــك فـــاعلم أنهـــا ســـتعود[61]

وفي أشعاره كثير من حديث النفس، وإعلان التوبة، والشعور الحقيقي والصادق. ومن شعراء تلك الحقبة من أسلموا ودخلوا في هذا الدين، إلا أنهم لم يكفوا عن بعض أساليب الصعلكة، وإن كان بعضهم قد تحلل منها تماماً لكنه ظل فاسقاً وفاسد المذهب وذلك مثل: أبي الطمحان القيني، وفضالة بن شريك، اللذين لم يكونا على جانب من العفة والتغير الذي شهدناه عند أبي خراش الهذلي، ويزيد بن الصيقل، فقد كانا لا يتورعان عن سب الناس وشتمهم، حتى إن فضالة بن شريك هجا عاصم بن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.

وواضح أنا أبا الطمحان القيني، وفضالة بن شريك، يمثلان الصعاليك الذين أقصروا بعد إسلامهم عن التصعلك القائم على الإغارة والغضب، ولكنهما لم يستقيما كل الاستقامة، فقد ظل أبو الطمحان رقيق الدين، جازعاً من الموت، عاكفاً على اللذات، مردداً لذكريات الشباب، يوم أن كان صعلوكاً عاملاً فتياً يتربص ويغزو ويسلب، أما فضالة بن شريك فقد ظل في نفسه شر كثير، وظلت آثار الصعلكة مسيطرة عليه موجهة له، وظل متقلباً يهجو ويمدح، وإن كان الهجاء قد غلب عليه وهو هجاء أفحش فيه، وصبه على من أساء أو أحسن إليه[62].

وهذا إنما يمثل رد فعل متوقع نتيجة الإحساس بالدونية، وافتقاد الذاتية الأمر الذي جعلهم يعزفون على لحن السب والشتم، ويلجأون إلى مثل الهجاء، ويعرضون عن الأخلاق الرفيعة العالية، وهذا في الحقيقة ينبئ عن ذاتية مستترة لا تظهر لنا فجأةً وإنما تظهرها لنا السلوكيات والثقافات الصادرة منهم.

ومنهم من لم يتأثر بالإسلام مطلقاً، فظل رهين الغزو والنهب والإغارة، كما نجد عند فرعان بن الأعرف التميمي الذي كان لصاً فاتكا حتى بعد أن أسلم وكبر، فنراه مثلاً يصور تزمته من الفقر والجوع، والحالة الرديئة، يقول:

يقـــول رجـــال إن فرعـــان فـــاجر	ولله أعطـــــاني بنيـــــن ومـــــا ليـــــا
فأربعـــة مثـــل الصـــقور وأربعـــاً	مـــراضيع قـــد وفـــين شـــعثاً ثمـــانياً
إذا اصـــطنعوا لا يخبئـــون لغائـــب	طعامـــاً ولا يرعـــون مـــن كـــان نائيـــا[63]

ومثل شاكلته أيضاً: شبيب بن كريب الطائي الذي كان هو الآخر لصاً فاتكاً، وكان في خلافة علي رضي الله عنه.

وإذا كانت رواسب الصعلكة قد هدأت عند مثل هؤلاء، وبقيت عند آخرين إلا أن الذاتية الفردية التي تميز شعرهم ظلت نمطاً حاضراً معهم في شتى مناحي الحياة ومناشطها، وكذلك في أكثر الأغراض الشعرية؛ ومرد ذلك واضح كما أسلفنا إلى تمثلهم لواقعهم الحقيقي الذي لم يفارقهم أبداً، فهم دائماً يسعون ليثبتوا للناس أنهم موجودون، وأنهم أقوياء وأشداء، ومكافحون، خاضوا دروب الصبر، وسلكوا سبل المشقة والنصب، فكان طبيعياً والحال هذه ألا يتغير هذا المبدأ الراسخ في أذهانهم، حتى بعد مجيء الإسلام الذي أزال تلك الرواسب الجاهلية الأولى، فساوى بين الناس، ووضع القوانين، وكفل الحقوق.

الاتجاه الذاتي عند صعاليك العصر الأموي: من الواضح أن لكل عصر ظروفا وملابسات خاصة تهيئ لظهور شعراء يتفاعلون مع أحداثها ويتجاوبون مع أصدائها العامة، وهكذا الحال بالنسبة للصعاليك، فهم وإن اتفقوا في الجانب الذاتي، أو الأثر الوجداني الجريح، إلا أن أساليب عيشهم، وسبل حياتهم تختلف من عصر إلى عصر، وفي العصر الأموي المليء بأحداثه السياسية التي غيرت مجرى التاريخ، والفتن والثورات الحزبية والطائفية التي كانت نقاط تحول في التاريخ، كان الصعاليك ماثلين في تلك الحقبة، وفي تلك البقعة، وقد كان للظروف السياسية العصيبة، والفتن والثورات دور في ظهورهم؛ ولعل العامل الاقتصادي من أسباب ذلك، فقد كان بعض الخلفاء في عصر بني أمية يسندون القطاعات والمناطق لبعض الولاة والقواد المتشددين، والذين لا يألون في طلب الرعية، وأخذ أموالهم بحجة الجباية أو الخراج، ونحو ذلك، كما كان للثورات والفتن التي استجدت، وزاد خطرها في ذلك العصر أيضاً دور في ظهور طائفة من الصعاليك، ونحن نلحظ ثورة الخوارج ونحوهم من الذين شهدت الدولة في عهدهم قلاقل وإحن ونزاعات، أدت بطبيعة الحال إلى إذكاء نار الفتنة، وانتشار مرض الفرقة بين المسلمين، ولا نريد الإطالة والتعمق في دراسة الملامح

السياسية والاقتصادية والاجتماعية لذلك العصر؛ لكون ذلك ليس من حديثنا، ولطول المقام في ذلك، إلا أن ما نريده من ذلك هو ظهور بعض طوائف الصعاليك وتأثرهم بذلك.

فقد كان الصعاليك في هذا العصر على أنواع كثيرة فمنهم الفقراء البؤساء، وممن يمثلهم: مالك بن الريب التميمي، وأبو النشناش التميمي ونحوهم.

ومنهم الصعاليك المخلوعون من قبل قبائلهم، ومن أمثال هؤلاء الخطيم العكلي، ومسعود بن خرشة التميمي.

وهناك نوع آخر من صعاليك تلك الحقبة وهم: أولئك الفارون من العدالة، وذلك بارتكابهم القتل أو السرقة أو نحوها من الجرائم، ويمثل أولئك مثلاً: القتال الكلابي، والأحيمر السعدي التميمي ونحوهم.

وهناك نوع رابع آخر من الصعاليك: وهم الصعاليك السياسيون الذين دخلوا في دوامة السياسة، وأعلنوا العداء للخلفاء وقوادهم، ودخلوا معهم في سخط وثورة، ويمثل أولئك: أبو حردبة المازني التميمي، وعبيد الله بن الحر الجعضي.[64]

وهذه لمحة موجزة لا بد منها لكي نشير إلى أنواع الصعاليك وفئاتهم في ذلك العصر، وبالتالي نتمثل الأثر الذاتي لأشعارهم، ولكن سنكتفي بنماذج من كل فئة حتى نتبين مظاهر الذاتية لديهم.

فمنهم مالك بن الريب التميمي والذي كان لصاً يقطع الطريق، ونلحظ أثر الذاتية جلياً واضحاً في شتى أشعاره فمن ذلك مثلاً قوله:

أحقـاً علـى السـلطان أمـا الـذي لـه	فيـعطي وأمـا مـا يـراد فيمنـع
ومـا أنـا كـالعير المقـيم لأهلـه	علـى القيـد في بحبوحـة الضـيم يرفـع[65]

ولعل رثاءه لنفسه يمثل ذاتيته بشكل كبير، وما لاقاه هذا الشاعر من عناء وتشرد.

ومنهم عبيد بن أيوب العنبري، الذي ذكر هو الآخر في جملة من أشعاره أحاديث عن الليل والحيوانات، والغول، ونحوها ومن ذلك قوله:

عـلام تـرى ليلـى تعـذب بـالمنى	أخـا قفـراتٍ كـان بالـذئب يـأنس
وصـار خليـل الغـول بعـد عـداوةٍ	صـفياً وربتـه القفـار البسـابس

إن وصفاً مثل ذلك، يجعلنا نتذكر السليك، بل نتذكر الشنفرى، أو تأبط شراً من صعاليك العصر الجاهلي الذين أطالوا كثيراً من ذكر الحيوانات والوحوش والقفار،

ونحوها، وهذا ما يومئ إلى النهج الثابت الذي ينزع منه أولئك، كما يدل على الوحدة الذاتية المرتبطة بالهم المشترك، والوجدان العام.

ومن ذلك أيضاً قول القتال الكلابي:

إذا هـــم همـــا لم يـــر الليـــل غمـــةً   عليـــه ولم تصـــعب عليـــه المراكـــب
قـــرى الهـــم إذ ضـــاف الزمـــاع فأصـــبحت   منازلـــه تعـــتس فيهـــا الثعالـــب[66]

وإن مثل هذه الأبيات التي يذكر أصحابها فيها الصحراء ومظاهرها لتدل على أن الطبيعة والبيئة المحيطة وإن اختلفت من عصر إلى آخر، إلا أنها تظل معبرةً عما يكن في صدور أولئك من حسرة وضيق وتزمت، أدى إلى بروز الأثر الذاتي بوضوح وجلاء في أشعارهم.

وأخيراً فقد كان العصر الأموي حافلا بكثير من الشعراء اللصوص الذين لم يقلوا عدداً عن أنظارهم في العصر الجاهلي، وقد كانوا على نفس الوتيرة والدوافع والأحاسيس، إلا أن ما نلحظه أنهم لم يتسموا ببعض القيم الطيبة التي ارتأيناها في العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام، فظل صعاليك العصر الأموي ملتزمين ببعض الثوابت والعادات التي كان عليها الشعراء الصعاليك الجاهليون، ولذلك فإن البعض ومنهم د. مصطفى الشكعة يفضلون إطلاق لقب اللصوص عليهم[67]، ونحن إلى ذلك نميل.

الاتجاه الذاتي عند صعاليك العصر العباسي: أشرنا سلفاً أن العصر العباسي شهد نقلة نوعية لظاهرة الصعلكة، التي تغيرت تغيراً واضحاً وملموساً؛ نتيجة تغير ظروف الحياة، وتجديد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومن المعروف أن العصر العباسي هو أزهر عصور الخلافة الإسلامية من جميع نواحي الحياة، وهذا ما أسهم في تغير نمط الصعاليك في هذا العصر، فالتوسع الجغرافي، والتطور الاقتصادي المتمثل بالثراء والنعيم، وانعدام الرابطة أو العصبية القبلية، كل ذلك أسهم في تغير وتجدد هذه الظاهرة، فلم تكن كما كانت عليه في العصر الجاهلي والأموي، وإنما تغيرت أساليب الصعلكة وتنوعت، وإن كان الدافع الوجداني والجانب الذاتي، ملازماً لأشعارهم جميعاً، وهذا هو ما يهمنا.

لقد كان الصعاليك في هذا العصر ذوي اتجاهات وأهداف متباينة، فمنهم من كان دافعه الفقر والبؤس وقلة ذات اليد، وآخرون هم طبقة من اللصوص الثائرين والجامحين، وهذان النوعان شهدنا آثارهما المشابهة في العصور السابقة لذلك العصر، أما النوع الآخر من هؤلاء الصعاليك فهم العيارون، أو الطفيليون، ونحوهم ممن كانت دوافعهم فكاهية وفي نفس الوقت ذات فائدة.

ونبدأ مع الفقراء وأصحاب الحاجة، فلقد لجأ أولئك في تصوير مواقفهم وأحاسيسهم إلى الإغارة والحرب، ولكنها إغارة وحرب من طراز آخر، إنها الحرب الكلامية، والغزو عن طريق اللسان، فإذا كان الصعاليك المعدمون في العصر الجاهلي يلجأون إلى الإغارة الفعلية المتمثلة بالسلب والنهب، فإن أولئك لجأوا إليها عن طريق اللسان المتمثل بالهجاء والإقذاع، والتعيير بالصفات اللاإنسانية، والقيم غير النبيلة، وهذا في اعتقادي إنما هو تنفيس داخلي، يظهره الشاعر بهذه الصورة البشعة التي يصف فيها من يذمه، وما ذاك إلا مما أملته عليه ذاته، مثال ذلك قول أبي فرعون الساسي يهجو شخصاً مشتهراً بالبخل والتقتير، يقول:

ولا بـــريم الـــدهر مـــن مكانـــه أشـــجع مـــن ليـــثٍ علـــى دكانـــه
لا يطمــــع الســـــائل في رغفانـــــه أعطـــاني الفلـــس علـــى هوانـــه[68]

ومن ذلك أيضاً قوله في الجوع والإفلاس وقد كناه أبا عمرة:

إن أبـــا عمـــرة حـــل حجرتـــي وحـــل نســـيج العنكبـــوت بـــرمتي[69]

ومن شعراء هذا الصنف أيضاً: أبو الشمقمق الذي كان شديد الهجاء، لاذع اللسان، فقد كان يمدح بعض الولاة فإن لم يستجيبوا لمدحه، ولم يولوه اهتمامهم فإنه سرعان ما يتغير، وينقلب ضدهم مبدياً لهم العداوة والبغضاء، وما أحسب ذلك إلا ضربا من ضروب الذاتية، والنوازع النفسية الداخلية، انظر إليه يصور حالته وفاقته بقوله:

أنـــــا في حـــــال تعـــــالى الله ربـــــــــــي أي حــــــــــــال
لـــــيس لـــــي شـــــيء إذا قيـــــل لمـــــــن ذا؟ قلـــــــت ذا لـــــــي
ولقـــــد أهزلـــــت حتـــــى محـــــت الشـــــمس خيـــــالي
ولقـــــد أفلســـــت حتـــــى حـــــل أكلـــــي لعيـــــالي[70]

إنه يصور حالته بصورة مفلسة، ليس له منها سوى أن تجعله هزيلاً يكاد يأكل عياله، ولقد كان هذا الشعر بنبرته الحزينة، والتي تشعر السامع بالشفقة على هذا الشاعر، نابعاً من أعماق نفسه، ومن تجاويف ذاته، وما يؤكد ذلك هو حرارة الموقف، وشدة الحاجة، وصدق التعبير، ولهذا يلجأ كثيرا إلى تصوير بؤسه وشقائه وسوء حظه، فمن ذلك مثلاً قوله:

لـــو قـــد رأيـــت ســـريري كنـــت تـــرحمني الله يعلـــم مـــا لـــي فيـــه تلبيـــس
والله يعلـــم مـــا لـــي فيـــه شـــابكة إلا الحصـــيرة والأطمـــار والـــديس[71]

وهو هنا يصور مسغبته وفقره، فلا يملك إلا سريراً لو رآه الإنسان لشعر بالشفقة والرحمة تجاهه، فلا يوجد عليه ما يقيه عن الخشبة إلا حصيرة متواضعة.

إن كل هذا قد أوردناه لكي يسوقنا إلى معرفة السبب الذي دعا أبا الشمقمق ليتجه إلى الهجاء اللاذع إلى من لم يقدم إليه المعروف أو الطلب، إنها الحاجة الماسة والتي تجعل الإنسان لا يخيب الظن، فإذا ما خاب ظنه فإنه سيلجأ حتما إلى الهجاء وهذا أثر واضح نلحظه عند فقراء الصعاليك في هذا العصر، من ذلك مثلاً قوله:

أنا بالأهواز جار لعمر — لعظيم زعموا ضخم الخطر
لا يرى منه علينا أثر — لا يكون الجواد إلا بأثر
إن تكن ورقك عنا عجزت — يا أبا حفص فجد لي بحجر
يكسر الجوز به صبياننا — وإذا ما حضر اللوز كسر[72]

وقد قال هذه الأبيات في هجاء عمر بن مساور الذي كان يتقلد بعض أعمال الأهواز.

أما فيما يتعلق بالصعاليك اللصوص الثائرين فإن المقام لا يتسع لذكرهم، والتعرف على نمط حياتهم، ذلك لأنهم كانوا ينتشرون انتشاراً واسعاً في ضواحي بغداد وغيرها من الأعمال العباسية، إلا أن ما يميز لصوصيتهم هو عدم الإغارة أو الحرب، وإنما الاقتصار على السلب والسرقة عن طريق الخدع الماكرة. وكتب التراث العباسي مليئة بالحديث عن لصوص تلك الحقبة وأخبارهم وفئاتهم وميولهم وأعمالهم وأهدافهم ونحو ذلك.

وهناك ملمح نلحظه عند صعاليك هذا النمط وهو عدم سرقتهم إلا من البخلاء فهم لا يسرقون من الأغنياء الكرماء، وهذا خلافا لما كان عليه صعاليك الجاهلية وفتاكها. ولهذا يصور أحدهم ذلك بقوله:

وعيابةٍ للجود لم تدر أنني — بإنهاب مال الباخلين موكل[73]

وهذا ما لا يشبه العمل الذي كان يفعله الصعاليك الجاهليون عندما يغيرون على الأثرياء في سبيل إطعام الفقراء والبؤساء المحتاجين، وما ذاك إلا رد فعل عنيف تجاه تلك الطبقة التي لا يهمها إلا مصلحتها وحسب.

ويظهر مما سبق أن اللصوص العباسيين كانوا يؤلفون عصاباتٍ لها قوتها وخطرها، وهي عصابات كانت منظمة مدربة متخصصة مثقفة، لها رؤساؤها ومبادئها وحيلها وغاياتها المحددة المقيدة بضوابط أخلاقية سامية، فقد كان أفرادها لا يطلبون إلا الفوز بما يحفظ حياتهم، والمساواة مع غيرهم في أسباب العيش، كما كانوا يتعرضون للتجار المانعين الزكاة، والأغنياء الأشحاء، وكانوا يخضعون في سلوكهم العملي والذاتي لقواعد ثابتة لا يشذون عنها، ولا يخرجون عنها، وهي ما عرف عندهم باسم الفتوة.[74]

وهناك طبقة أخرى من الصعاليك في هذا العصر وهم من يطلق عليهم (العيارين) وهم طائفة من الرقيق الآخر، والأحباش الذين اكتظت بهم سجون بني العباس، وخرجوا بعد ذلك من هذه السجون نتيجة الحروب والخلافات فراحوا يفسدون في الأرض، ويتلصصون ويسرقون، وقد صورهم كثير من الشعراء، وهم أشبه بما نسميهم في أيامنا هذه (أصحاب السوابق).

وهناك فئة أخرى من صعاليك هذه الفترة وهم من يطلق عليهم لقب (الشطار) وهم أيضاً مجموعة تميزت بالقوة والفتك، وكان منهم من يغير على الناس علناً ويسلب أموالهم ويبيعها جهاراً، غير أنه من الخطإ أن نحكم على شعراء تلك الطبقة بأنهم كانوا على نحو من هذا الجانب السيئ، ولكنهم كانوا يتفاوتون في ذلك، ومن شعرائهم: ابن الطبيب وهو: إسحاق بن خلف الحنفي، والذي كان فاتكاً قوياً، ولصاً متمكناً لكنه تاب وأناب في أخرياته، ولعلنا نورد نصاً نحاول من خلاله استكشاف الأثر الذاتي في شعره، فمن ذلك قوله يرثي ابنة أخته، وكان تبناها وكان محباً لها ومغرماً بها. يقول:

أمسـت أميمـة معمـوراً بهـا الـرجم ... لقـى صـعيدٍ عليهـا الـترب مـرتكم

ياشـقة الـنفس إن الـنفس والهـة ... حـرى عليـك ودمـع العـين منسـجم

للمـوت عنـدي إيـادٍ لسـت أنكرهـا ... أحيـا سـروراً وبـي ممـا أتـى ألم

وهذه المرثية ليست مما يقع مع الجزع القراح والحزن المفرط، ولكنه باب للمراثي يجمع إفراط الجزع، وحسن الاقتصاد، والميل إلى التشكي، والركون إلى التعزي، وقول من كان له واعظ من نفسه، أو مذكر من ربه، وكان طبعه إلى القسوة فقد اختلط كل بكل[75].

وهناك طائفة أخرى منهم أيضاً كانت نشأتها في هذا العصر وهي طائفة الطفيليين الذين يأتون إلى الأعراس والولائم من غير دعوة، وكان رائدهم في ذلك العصر هو طفيل بن زلال الذي تنسب له تلك الفئة. وتشير أخبارهم إلى أن امتهانهم لتلك المهنة إنما هو نتيجة الحاجة الماسة من الأكل والشرب، ولذلك فإنهم لم يكترثوا بمبادئ الاحترام والواجبات، وإنما يضربون بها عرض الحائط، فيلجأوون إلى التصعلك والتطفل. يقول طفيل:

ولمـا رأيـت النـاس ضـنوا بمـالهم ... فلـم يـك فـيهم مـن يهـتش إلى الفضـل

ولم أرمـنهم داعيـاً لابـن فاقـةٍ ... يمـن إلى شـربٍ ويصـبو إلى أكـل

ركبـت طفيليـاً وطوفـت فـيهم ... ولم أكـترث للحلـم والعلـم والأصـل[76]

ومنهم أيضاً عثمان بن دراج والذي يصور متعته عندما يأكل من أموال الأغنياء:

لـذة التطفيـل دومـي ... وأميمـي لا تريمـي

أنـــــت تشـــــفين غليلـــــي   وتســـــليني همـــــومي

إن ما يمكن قوله عن هذه الأبيات أنها تمثل ما كان يختمر في عقول تلك الفئة من الهموم، والقلق بشأن المستقبل، والخوف منه، والهلع الشديد على الحياة، وهذا كله إنما هو من مكنونات النفس التي جبلت على حب العيش وتوفير اللقمة الهنيئة، ولذلك كثر اهتمامهم بذلك في الشعر، الأمر الذي يقودنا إلى معرفة الآثار الذاتية في أشعارهم وأسبابها ومسبابتها، وقد بدا لنا ذلك واضحاً وجلياً.

والصعاليك في هذا العصر على فئاتٍ متعددة وهي فئاتٌ في أكثرها لم تختلف تماماً عن سابقتها من حيث الهم الذاتي أو الهدف المشترك والمضمون الواحد، فكل فئات الصعاليك باختلاف أنماط حياتها، وأساليب عيشها، وظروف طبيعتها تنبع من هاجس واحد، وتصدر من قالب هدفي واحد، وهذا ما لحظناه هنا أيضاً في العصر العباسي.

وما يمكن أن نعتبره حديثاً في هذا العصر هو ظاهرة التطفيل عند أولئك الشعراء الصعاليك، فهي وإن كانت بذورها وجذورها الأولى قديمة، إلا أنها اكتسبت في هذا العصر طابعاً خاصاً، تمثل بكثرتهم من جهة، واحترافهم من جهة أخرى، واعتبارهم ذلك فناً قصدوه، بدأوا ينظمون فيه أشعارهم، ويضمنونها هواجسهم ومعاناتهم.

خـــاتمـــة:

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وبشكره تكمل الغايات، وتحصل الطاعات، وأصلي وأسلم على صفوة رسله وأنبيائه نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

فقد تم بحمد الله الانتهاء من هذا العمل، والذي شرعنا فيه في مدة قد لا تكون قصيرة، وتناولنا فيه الحديث عن ظاهرة الصعلكة ومفهومها اللغوي، والأدبي، وأسباب نشوئها وتطورها مع العصور مع إلمامات سريعة حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ولما كان لب هذا العمل، وجوهره، الذي أعد من أجله هو الاتجاهات الذاتية في شعر الصعاليك فإننا وقفنا عندها طويلاً، وحاولنا تلمس آثارها عبر العصور الأدبية من الجاهلي حتى العباسي، وما بينهما وكيف كانت الذاتية منهجاً سائراً في الشعر العربي، ومنهجاً خاصاً مميزاً في شعر الصعاليك.

وما يمكن قوله عن الذاتية إنها مظهر قديم التواجد في الشعر العربي، بيد أنه حديث الدراسة والبحث من قبل الأدباء والباحثين العرب، وحتى لا نغالي، فإن قلة قليلةً من الأدباء والباحثين تناولوا هذا الغرض بصفة عامة في الشعر العربي، ولم أجد في حد علمي حتى كتابة هذه الكلمات من درس هذا الغرض أو هذا الأثر اللافت للانتباه.

لقد كان أكبر أثر لفت انتباهي وأنا أقرأ حول هذه الطبقة من الشعراء؛ الأثر الذاتي الذي كان يحتاج إلى معايشة هؤلاء الصعاليك والاطلاع على أخبارهم وأشعارهم، واستنتاج هذا الأثر الذي ظل كامناً مع أحاسيسهم الدفينة ومشاعرهم الخفية، والتي أظهرتها لنا ردة فعلهم العنيفة، فكان أن برز ذلك الأثر، وتألق كثيراً في شعرهم.

لقد درس النقاد والأدباء الغربيون نفسيات بعض أدبائهم وشعرائهم، فكان من ضمن ما تطرقوا إليه تلك الذاتية التي تفيض بها نفوسهم، وتلك الواقعية التي كانت مجالاً رحباً لتقييم سلوكهم وانطباعاتهم، وما أدى ذلك إلى ظهور بعض المذاهب المهتمة بذلك كالرومانسية والرومانتيكية والواقعية ونحوها.

إننا هنا لا نقارن كما أننا لانطبق بعض نظرياتهم على أدبنا، إلا أن ما نصبو إليه ونتطلع له هو إبراز جانب في أدب شعرائنا، كان له السبق في هذا الميدان، الذي راح أولئك الغربيون يتفننون ويفخرون به، وينظرون له ويطبقون.

ثمة رأي آخر انبثق من خلال وريقات هذا العمل، وهو الذات الأخلاقية أو ما نصطلح على تسميته بالقيم الإنسانية الرفيعة، تلك القيم النبيلة التي وجدنا أصداءها مماثلة لدى شعراء الصعاليك، حتى أننا لو قلنا إن أكثرهم كانت لديه تلك النزعات لم نكن مغالين أو مبالغين في ذلك.

إنه من الإجحاف بحق أي إنسان أن نظهر سلبياته، ونكشف النقاب عن جوانبه المظلمة، ونغمض أعيننا، ونصم آذاننا عما لديه من جانب مضيء، وأثر إيجابي نبيل مشرق، وتلك هي الحال التي سار عليها بعض الباحثين للأسف، ففي الوقت الذي كان لدى الشعراء الصعاليك فيه قيم نبيلة، ونزعات إنسانية رفيعة، راح البعض يكثرون من وصفهم بصفاتٍ أملتها عليهم ظروف عيشهم القاسية، وأساليب حياتهم الصعبة.

لقد كانت حياة العرب قديماً مبنية على هذا الصراع الذي نجد نمطاً من أنماطه عند الصعاليك، وما ذاك إلا تفاعل مع الحياة، وتجاوب مع الظروف التي أملاها عليهم واقعهم وأسلوب حياتهم.

وخليق بالإنسان العاقل إذا أراد الحكم على الشيء أن يذكر حسناته وسيئاته ويبرز مثالبه ومناقبه، ويبين ما له وما عليه.

إننا لا ندعي الإنصاف، كما لا ندعي الكمال، ولكننا حاولنا واجتهدنا فإن أصبنا فمن الله، والحمد لله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان.

ومع ذلك: ما أرانا نقول إلا معاداً = أو معاراً من لفظنا مكرورا

هذا والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى أله وصحبه وسلم.

مصادر الدراسة:

– **أحمد راتب النفاخ**، مختارات من الشعر الجاهلي، د. ط، مكتبة دار الفتح، دمشق – سوريا د. ت.

– **الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم،** شرح القصائد السبع الطول الجاهليات، ضبط وتعليق: بركات يوسف هبود، د. ط، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت 1424هـ.

ـ **تأبط شراً**، ديوانه، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، ط / 1، دار المعرفة بيروت، لبنان ـ 1424هـ.

– **د. حسين عطوان**، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د. ط، دار المعارف، مصر د. ت.

– **د.حسين عطوان**، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، د. ط، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان د. ت.

– **الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر،** أساس البلاغة، د. ط، دار الفكر، بيروت – لبنان 1424 هـ.

– **د. السيد أحمد عمارة**، دراسة في نصوص الشعر الجاهلي " تحليل وتذوق "، ط / 1، مكتبة المتنبي، الدمام – السعودية، 1424 هـ.

– **د. سعد إسماعيل شلبي**، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، د. ط، مكتبة غريب، القاهرة – مصر، د. ت.

– **السليك بن السلكة**، ديوانه، تقديم: طلال حرب، ط / 1، دار صادر، بيروت ـ لبنان 1996 م.

– **السيوطي**، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، ط / 1، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت 1425 هـ.

– **الشنفرى الأزدي**، ديوانه، تقديم: طلال حرب، ط / 1، دار صادر، بيروت – لبنان 1996 م.

– **د.شوقي ضيف،** العصر الجاهلي، ط / 8، دار المعارف، مصر د. ت.

– **د. شوقي ضيف**، العصر العباسي الأول، ط / 6، دار المعارف، مصر د. ت.

– **عائض القرني**، قصائد قتلت أصحابها، ط / 1، مكتبة العبيكان، الرياض – السعودية 1425 هـ.

– **د. عبده بدوي**، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1988م.

– **عبد الحليم حفني**، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1979 م.

– **عروة بن الورد**، ديوانه، تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، ط / 1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان 1412 هـ.

– **عمرو بن براق**، ديوانه، تقديم: طلال حرب، ط / 1، دار صادر، بيروت – لبنان 1996 م.

– **عواض ضيف الله العتيبي**، من روائع الشعر العربي، ط / 1، مطابع البادية، الرياض – السعودية 1417 هـ.

– **الفيروز آبادي**، القاموس المحيط، ط / 2، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان 1424 هـ.

- **ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم**، الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء، تحقيق د. مفيد قميحة، الأستاذ: نعيم زرزور، ط / 2، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1405هـ.

- **المبرد: أبو العباس**، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: د. محمد أحمد الدالي، ط / 3، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان 1418هـ.

– **محمد بديع شريف**، لامية العرب " نشيد الصحراء " لشاعر الأزد الشنفرى، د. ط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان د. ت.

– **محمد رضا مروة**، الصعاليك في العصر الجاهلي " أخبارهم وأشعارهم " د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان د. ت.

– **أ. د. محمد بن سعد بن حسين**، تاريخ التجديد في الشعر العربي إلى مطلع العصر الحديث، ط / 1، دار عبد العزيز آل حسين للنشر والتوزيع، الرياض – السعودية 1422 هـ.

– **أ. د، محمد صالح الشنطي**، في الأدب العربي القديم " مصدره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسة منه، ط / 2، دار الأندلس، حائل – السعودية 1417 هـ.

– **محمد أبو الفضل إبراهيم و محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي**، قصص العرب، د. ط، المكتبة العصرية، صيدا – لبنان 1425 هـ.

– **مصطفى الشكعة**، رحلة الشعر، ط / 1، الدار المصرية اللبنانية، بيروت – لبنان 1418 هـ.

– **المفضل الضبي محمد بن يعلى الضبي الكوفي**، المفضليات، تحقيق: د. قصي الحسيني، ط / الأخيرة، دار الهلال، بيروت – لبنان 2004 م.

- **أبو منصور الثعالبي النسابوري**، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط / 1، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت 1424هـ.

- **ابن منظور: جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري**، لسان العرب، تحقيق ومراجعة: عامر أحمد حيدر، عبد المنعم خليل إبراهيم، ط / 1، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1424 هـ.

– د. **يوسف خليف**، دراسات في الشعر الجاهلي، د. ط، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة – مصر د. ت.

- **د. يوسف خليف**، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. ط، دار المعارف، مصر 1959هـ ص: 121

– **المنجد في اللغة والأعلام**، ط / 39، دار المشرق، بيروت.

الهوامش:

---

1 ابن منظور، لسان العرب، ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 2003م، ج/10، ص: 550، مادة صعلك.

2 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط/2 دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان 1424هـ، ص: 781. مادة صعلك.

3 أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، د. ط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ـ 1424 هـ ـ 2004م ـ ص: 355 مادة صعلك.

4 المنجد في اللغة والأعلام، ط / 39، دار المشرق، بيروت ـ لبنان 2002م ـ ص: 425، مادة صعلك

5 انظر د. عبد الحليم حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979م، ص: 35

6 محمد رضا مروة، الصعاليك في العصر الجاهلي أخبارهم وأشعارهم، ط / 1، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1411هـ ـ ص: 29

7 المرجع نفسه ـ ص: 30

8 عروة بن الورد، الديوان، تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، ط/ 1، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1412هـ، ص: 10

9 عروة بن الورد، الديوان، ص 52، وكذلك محمد رضا مروة ـ الصعاليك في العصر الجاهلي أخبارهم وأشعارهم، ص: 30

10 د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ط / 8، دار المعارف، مصر، د. ت، ص: 384

11 السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق: أبو الفضل إبراهيم – محمد جاد المولى – علي البجاوي ط / 1، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت 1425هـ ج/ 2 ـ ص: 326

12 تأبط شراً، الديوان، شرح عبد الرحمن الطنطاوي، ط/1، دار المعرفة، بيروت - لبنان 1424هـ ـ ص: 7

13 المصدر نفسه ـ ص: 10

14 الشنفرى، الديوان، تقديم: طلاب حرب، ط / 1 دار صادر، بيروت - لبنان 1996، ص:13

15 المصدر نفسه .55

16 عمرو بن براق، الديوان، تقديم طلال حرب، ط / 1، دار صادر، بيروت - لبنان 1996م ص: 108

17 محمد رضا مروة . الصعاليك في العصر الجاهلي أخبارهم وأشعارهم، ص: 36

18 د.عبد الحليم حفني . شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص: 196

19 ينظر: د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. ط، دار المعارف، مصر 1959هـ ص: 121

20 د. محمد الشنطي، في الأدب العربي القديم، ط / 2، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل – السعودية 1417هـ، ص: 86.

21 وهو من شعراء هذيل واسمه خويلد بن مرة، نهشته حية فمات في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: مفيد قميحة، ط / 2، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان 1405هـ، ص: 44

22 السليك بن السلكة، الديوان، تقديم: طلال حرب، ط / 1، دار صادر، بيروت – لبنان د. ت، ص: 88

23 ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص: 230

24 عروة بن الورد، الديوان، ص:61

25 تأبط شراً، الديوان، ص:20

26 ينظر: المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق: قصي الحسيني، الطبعة الأخيرة، دار الهلال، بيروت – لبنان 2004م، ص:18

27 الشنفرى، الديوان ص: 85.

28 ينظر: د. السيد أحمد عمارة، دراسة في نصوص العصر الجاهلي، تحليل وتذوق، ط / 1، مكتبة المتنبي، الدمام - السعودية 1424هـ ص:6

29 د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د. ط، دار المعارف، مصر د. ت، ص: 18

30 ابن قتيبة . الشعر والشعراء، ص: 246

31 المصدر نفسه، ص: 429

32 د. مصطفى الشكعة، رحلة الشعر، ط/4، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة - مصر 1417هـ ص: 345

33 ينظر: د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، ط / 1، دار الطليعة . بيروت – لبنان 1972م ص: 88

34 د. سعد إسماعيل شلبي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، د.ت، ص: 334

35 الشنفرى، الديوان، ص:55

36 محمد بديع شريف، لا مية العرب نشيد الصحراء لشاعر الأزد (الشنفرى)، دار الحياة، بيروت . ص:62

37 وكان لصاً كثير الجنايات فخلعه قومه وخاف السلطان فخرج في الفلوات وقفار الأرض. ابن قتيبة، الشعر والشعراء.ص: 531

38 المصدر نفسه، ص: 531.

39 تأبط شرا، الديوان ص: 73، وكذلك، ينظر: محمد أحمد، على محمد البجاوي، أبو الفضل إبراهيم، قصص العرب، المكتبة العصرية ـ بيروت 1425هـ، الباب الخامس ص: 235

40 تأبط شرا، الديوان، ص 52، وكذلك أحمد راتب النفاخ، مختارات من الشعر الجاهلي، مكتبة دار الفتح، دمشق، سوريا، ص: 272،280

41 عمرو بن براق، الديوان، ص: 107.

42 أبو خراش الهذلي، الديوان، تحقيق لجنة التحقيق دار القلم العربي، مراجعة، أحمد عبد الله فرهود، ص: 16، وكذلك، د. مصطفى الشكعة، رحلة الشعر، ص 338

43 تأبط شراً، الديوان، ص: 44

44 أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج12، 35، وكذلك، د. عبد الحليم حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص: 326

45 ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 151، وكذلك، عواض ضيف الله العتيبي ـ من روائع الشعر العربي ـ مطابع البادية ـ الرياض ـ الطبعة الأولى 1417هـ ص: 194

46 تأبط شراً، الديوان، ص: 27

47 الشنفرى، الديوان، ص: 50

48 السليك، الديوان، ص: 88

49 الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص 85، وكذلك، د. عائض القرني، قصائد قتلت أصحابها، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الرابعة 1425هـ، ص:70

50 أبو بكر الأنبا ري، شرح القصائد السبع الطوال، المكتبة العصرية ـ صيدا، 1424هـ، ص: 292

51 السليك بن السلكة، الديوان، ص 95، وكذلك، د.عبده بدوي، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، الهيئة المصرية للكتاب، 1988، ص: 282

52 أ. د. محمد بن سعد بن حسين ـ تاريخ التجديد في الشعر العربي إلى مطلع العصر الحديث ـ دار عبد العزيز آل حسين للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ الطبعة الأولى 1424هـ ـ ص: 29

53 عروة بن الورد، أمير الصعاليك ـ المصدر السابق ـ 39

54 عروة بن الورد، أمير الصعاليك ـ المصدر السابق ـ 39

55 عمرو بن براق ـ المصدر السابق ـ 108

56 د. عبد الحليم حفني ـ المصدر السابق ـ 376

57 د. يوسف خليف ـ دراسات في الشعر. الجاهلي ـ دار غريب للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ص: 188

58 د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، دار المعارف ـ مصر ـ ص: 15

59 ينظر: د. عبد الحليم حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص ص: 97 ـ 99 ـ 100

60 أبو خراش الهذلي، الديوان ص 18، وكذلك د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، 18

61 المبرد، الكامل، ج1، 75، وكذلك، د. مصطفى الشكعة، رحلة الشعر، ص: 344

62 د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، ص: 26

63 ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 352، وكذلك، د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، ص: 27

64 انظر: حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، ص: 78، 79

65 أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج 25، ص 12، وكذلك، د. مصطفى الشكعة، رحلة الشعر، ص: 355

66 الآمدي، المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، ص 212، وكذلك د. مصطفى الشكعة، رحلة الشعر، ص: 92

67 انظر: د. مصطفى الشكعة، رحلة الشعر، ص:345

68 أبو حيان الأندلسي، البصائر والذخائر، ج3، ص 105، وكذلك، د. حسين عطوان ـ الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ص: 93

69 أبو منصور الثعالبي ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ـ المكتبة العصرية ـ بيروت 1424هـ ص: 207

70 أبو الشمقمق، الديوان، تحقيق واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص 135، وكذلك، د. شوقي ضيف ـ العصر العباسي الأول ـ دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة السادسة، د.ت، ص: 438

71 أبو الشمقمق، الديوان، ص: 75، وكذلك، د.شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص: 438

72 أبو الشمقمق، الديوان، ص: 68، وكذلك، د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، ص: 95

73 الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج3، ص: 215، وكذلك د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، ص:218

74 د. حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، ص: 221

75 أبو العباس المبرد ـ الكامل في اللغة والأدب ـ تحقيق: د. محمد أحمد الدالي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1418 هـ ج/ 3 ص / 1379

76 طفيل الغنوي، الديوان، تحقيق حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص 212، وكذلك، د. حسين عطوان ـ الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ـ ص: 253 ـ 255 ـ 256